دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الغرور والكبر في ضوء القرآن الكريم
المؤلف الرئيسي:	إبراهيم، منال ميرغني محمد
مؤلفين آخرين:	الحسن، فوزية أحمد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2009
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 266
رقم MD:	562146
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الغرور في القرآن، التكبر في القرآن، الوعظ والارشاد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/562146

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الرابع
توجيه القرآن الكريم للتخلص
من الغُرور والكِبرْ والإقبال على الطاعة

وبه مبحثان:

المبحث الأول: طرق التخلص من الغرور والكبر.

المبحث الثاني: الكبرياء لله وعزة للدين.

المبحث الأول
طرق التخلص من الغُرور والكِبرْ

وبه أربعة مطالب:

المطلب الأول: أن يدرك المستكبر حقيقة نفسه.

المطلب الثاني: محاسبة النفس والإقبال على الطاعة.

المطلب الثالث: الوقوف على نتائج وعواقب الغُرور والكِبرْ.

المطلب الرابع: التواضع.

المطلب الأول
أن يدرك المستكبر حقيقة نفسه

الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول عن طريق التمني بل بالمعالجة واختيار سبل للخلاص منه باستئصال أصله وقطع شجرته من مغرسها في القلب، ومن تلك السبل أن يدرك المستكبر حقيقة نفسه وخلقه بمعرفة قدره وذلك بمعرفة بدايته ونهايته.

أما بدايته فقد مضت الدهور ولم يكن فيها شيئاً مذكوراً وأوجده الله عزّ وجل بعد العدم إذ لم يكن شيئاً مذكوراً، قال تعالى ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[1]، فأوجده الله عزّ وجل ميتاً، وبدأ بموته قبل حياته، لأنه خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم جعله عظاماً، ثم كسا العظام لحماً[2].

قال تعالى ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾[3]، فالإنسان مخلوق من طين ومتى نظر وتمعن الإنسان في خلقه لا يصل به غروره واستكباره إلى أن يتعالى عن الحق والإصغاء له ويتعالى على الناس ولا لنفسه الأمارة أن تغتر بما هو ذاهب لا محالة، فلكل ما يذهب إليه من أشكال وصور الغرور فهو لا محالة يؤدي إلى ما هو أخطر من ظاهره من كفر وشرك وجحود بخلق الله سبحانه وتعالى، وتعالى منه على الحق وعن أتباعه وكفر وجحود بآياته فهو بالتالي يقود إلى التكبر على الخالق جلّ وعلا.

ففي الخطاب الذاتي للإنسان يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[4]، في

---

(١) سورة الإنسان، الآية (١).

(٢) الرعاية لحقوق الله تعالى، أبوعبدالله الحارث بن أسد المحاسبي (ت: ٢٤٣هـ)، تقديم د.عبدالحليم محمود، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، ط١(١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)، دار الكتب الحديثة ص٤٧٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآية (١٢).

(٤) سورة الانفطار، الآيات (٦-٨).

هذا الخطاب مطلوب من الإنسان أن ينظر في ذاته وفي خلق الله له وما أمره به سبحانه من قوى عاملة مقدرة مفكرة وفي ذلك ما يصله بخالقه، وبالولاء له سبحانه وبالتوجه إليه فيما يرجو من عون وما يأمل من خير، يقول تعالى ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾(١).

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه فقال (**هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا**) ثم بين فقال جل وعلا (**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**) أي أخلاط، والمشج والمشيج الشيء المختلط بعضه في بعض، قال ابن عباس: يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ثم يتنقل بعد ذلك من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون، وذهب إلى ذلك عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس(٢)(٣).

(**هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ**) أي قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان لم يكن شيئاً، أي كان في العدم لم يكن له ذكر ولا وجود، فالغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئاً منسياً وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه، وماءً مهيناً لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه ومرّ عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله تعالى وأبدع تكوينه وإنشاءه، ثم أفاض عليه نعمة الوجود واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متعه بنعمة العقل والحواس فقال (**فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا**) أي عاقلاً مميزاً ذا سمع وبصر(٤).

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان (٢-٣).

(٢) الربيع بن أنس بن زياد البكري الخرساني، المروزي، البصري، سمع أنس بن مالك وأبا العالية الرياضي وأكثر عنه، والحسن البصري، روى عنه سليمان التميمي والأعمش والحسن بن واقد وأبوجعفر الرازي وغيرهم، توفي سنة١٣٩هـ، انظر: سير أعلام النبلاء٦/١٧٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم٤/٤٨٣.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط١، ١٤٠٠هـ، دار القرآن الكريم، بيروت، ٣/٣٩١.

(إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ) هو جنس بني آدم لأن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة أمشاج وأخلاط، وهو وصف للنطفة، قال ابن مسعود وأسامة بن زيد[١] عن أبيه: هي العروق التي في النطفة[٢].

وقيل الإنسان هنا آدم، والحين الذي آتى عليه حين كان طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح، وهذا ضعيف لوجهين أحدهما قوله تعالى **(إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ)** وهو هنا جنس باتفاق، إذ لا يصح هنا في آدم، والآخر أن مقصد الآية تحقير الإنسان[٣].

(نَّبْتَلِيه) نختبره[٤].

(فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا) أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية[٥].

أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، ليسمع الآيات المنزلة ويبصر الدلائل الكونية على وجود الخالق الحكيم[٦].

أمتن تعالى عليه بهاتين الصفتين وهي كناية عن التمييز والفهم وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات، ولما جعله بهذه المثابة أخبر تعالى إلى أنه هداه إلى السبيل أي أرشده إلى الطريق، وعرفنا مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك، إذ أرشدنا طريق الهدى، وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة، وقال السدي: سبيل الخروج

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبدالعزى بن امرئ القيس المولى بن الأمير الكبير، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومولاه وابن مولاه أبوزيد، شهد يوم مؤتة مع والده، وسكن المزة قرية جنوب غرب دمشق، توفي بالمدينة، حدّث عنه عدد من الصحابة، كان شديد السواد، خفيف الروح، شجاعاً، رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحبه كثيراً، وهو ابن حاضنة النبي أم أيمن، توفي في آخر خلافة معاوية، انظر: سير أعلام النبلاء ٢/٤٩٦.

(٢) تفسير البحر المحيط٨/٣٨٥.

(٣) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل٤/٣١٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم٤/٤٨٣، تفسير البحر المحيط٨/٣٨٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم٣/٤٨٣.

(٦) صفوة التفاسير٣/٤٩١.

من الرحم **(إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)** ولما كان الشكر قل من يتصف به قال شاكراً، ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء **(كَفُورًا)** بصيغة المبالغة(١).

ويبين سبحانه وتعالى أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار وتنقله فيها طوراً بعد طور حتى بلغ نهايته، يأبى أن يتركه سُدى فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص قال تعالى ﴿**أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ**﴾(٢).

أي لما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يمنى يراق من الأصلاب في الأرحام فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيها الروح فصار خلقاً آخر سوياً، سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره(٣).

(أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) هذا توبيخ ومعناه أيظن أن يترك من غير بعث ولا حساب ولا جزاء فهو كقوله ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾(٤)، والإنسان هنا جنس، وقيل نزلت في أبي جهل ولا يبعد أن يكون سببها خاص ومعناها عام.

ومعنى الآية الاستدلال بخلق الإنسان على بعثه كقوله ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾(٥) والعلقة الدم لأن المِنى يصير في الرحم دماً **(فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ)** أي خلقه بشراً فسوى صورته أي أتقنها(٦).

---

(١) تفسير البحر المحيط٨/٣٨٦.
(٢) سورة القيامة، الآيات (٣٥-٣٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم٤/٤٨٢.
(٤) سورة المؤمنون، الآية (١١٥).
(٥) سورة يس، الآية (٧٩).
(٦) كتاب التسهيل٤/٣١٤.

العجب من أمر هذا الإنسان الذي يعرض عن الهدى ويستغني عن الإيمان ويستعلى على الدعوة إلى ربه، وهو لا يذكر مصدر وجوده وأصل نشأته ولا يرى عناية الله به وهيمنته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته، ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه قال تعالىَ ﴿ **قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ * مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ**﴾[1].

(قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ) فإنه يستحق القتل على عجيب تصرفه **(مَآ أَكۡفَرَهُۥ)** ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه ولتواضع في دنياه ولذكر آخرته، وإلا فعلام يتكبر ويستغني ويعرض وما هو أصله ومبدؤه؟! **(مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ)** إنه أصل متواضع زهيد **(مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ)** من هذا الشيء الذي لا قيمة له، ومن هذا الأصل الذي لا قوام له، ولكن خالقه هو الذي قدره فجعله خلقاً سوياً وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع إلى المقام الرفيع الذي تسخر له فيه الأرض وما عليها[2].

قيل نزلت في عتبة بن أبي لهب[3] غاضب أباه فأسلم ثم أستصلحه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كافر برب النجم إذا هوى، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: (فلما انتهى إلى الغافرة ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار أن أصبح فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله فأقبل الأسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه، فكان أبوه يندبه ويبكي عليه وقال: ما قال محمد شيئاً قط إلا كان)، وإن

---

(١) سورة عبس، الآيات (١٧-٢١).

(٢) انظر: ظلال القرآن الكريم٦/٣٠/٣٨٣١.

(٣) عتبة بن أبي لهب بن عبدالمطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، شهد هو وأخوه حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيمن ثبت، أقام بمكة ومات بها، انظر: الإصابة٤/٤٤٠.

نزلت في مخصوص فالإنسان يراد به الكافر وقتل دُعاء دعاء عليه والقتل أعظم شدائد الدنيا[1].

(مَآ أَكۡفَرَهُۥ) تعجب من إفراط كفره لأي شيء يسوغ له أن يكفر **(مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ)** استفهام على معنى التقرير على حقارة ما خلق منه **(مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ)** أي فهيأه لما يصلح **(ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ)** أي ثم يسر السبيل أي سهل[2].

قال قتادة والسدي: سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان وتيسيره له هو هبة العقل، قال مجاهد والحسن وعطاء: السبيل العام اسم الجنس في هدى وضلال أي يسر قوماً لهذا لقوله ﴿**إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ**﴾ [3]، ﴿**وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ**﴾[4] وعن ابن عباس: يسره للخروج من بطن أمه.

يرجح الكلبي[5] القول: يسر سبيل خروجه من بطن أمه لعطفه على قوله **(مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ)** وهو قول ابن عباس[6].

وإلى هذا القول ذهب ابن كثير في تفسيره[7].

في الآية يذم الله سبحانه وتعالى من أنكر البعث والنشور من أولئك الذين غرتهم الحياة الدنيا وأطغاهم المال فنسوا ما ذكروا به فاستحقوا غضب الله **(قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ)** المراد بيان قبح حاله وأنه بلغ حداً من العتو والكبر لا يستحق معه أن يبقى حياً

---

(١) تفسير البحر المحيط٨/٤٢٠.

(٢) تفسير البحر المحيط٨/٤٣٠.

(٣) سورة الإنسان، الآية (٣).

(٤) سورة البلد، الآية (١٠).

(٥) الكلبي: محمد بن أحمد بن جزي الكلبي المالكي، كان شيخاً جليلاً ورعاً وزاهداً عابداً مقلاً من الدنيا، وكان فقيهاً، مفسراً، وله تفسير القرآن (التسهيل)، وعدة مؤلفات، توفي سنة٧٤١هـ، طبقات المفسرين١/١٠١.

(٦) كتاب التسهيل٤/٢٤٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم٤/٥٠٤.

فهو تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب بكفرهم وعنادهم واستكبارهم **(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ)** أي من شيء حقير مهين خلقه فلا ينبغي له التجبر ولا التكبر على أحد وخاصة على خالقه الكبير المتعال، وقد أجاب الله تعالى أنه خلق الإنسان من ماء مهين حقير قال تعالى **﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾**(١)، **(ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ)** فالله عزّ وجل يقبض روح الإنسان ولم يتركه مطروحاً على الأرض جزراً للسباع، بل تفضل عليه وجعل في غريزة نوعه أن يوارى ميته تكرمة له(٢).

ومن آياته الباهرة الدالة على قدرته على البعث أن خلقكم من تراب وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم قال تعالى **﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾**(٣).

انتشاراً ملأ البسيطة وشمل الكرة فأخذتم في عمارة الأرض فسبحان من خلقكم وصرفكم في فنون المعايش وفارق بينكم في العلوم والمعارف والحسن والقبح(٤).

ومن كان ذلك أصله فلا يغتر ويتكبر بما حصل عليه من مال وحال فكل ذلك صائر لا محالة إلى التراب، فآدم عليه السلام مخلوق من مادة هذه الأرض، من ترابها أولاً، ثم إن هذا التراب مرّ في أطوار، حتى كانت نفخة الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكائن المصور على صورة إنسان بعد أن صار صلصالاً وقد قال تعالى في تطور

---

(١) سورة الطارق، الآيات (٥-٧).

(٢) فاتحة الكتاب وجزء عمّ الخاتم للقرآن، تفسير وبيان، تأليف محمد محمود الصواف، ط١(١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ص١٣٢.

(٣) سورة الروم، الآية (٢٠).

(٤) تفسير القاسمي٩/٨.

خلق آدم من تراب إلى أن صار بشراً سوياً قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾(١).

اختلف أهل التأويل في المعني بالإنسان في هذا الموضع فقال بعضهم: عني به آدم عليه السلام منهم قتادة، وقال آخرون: بل معنى ذلك ولقد خلقنا ولد آدم وهو الإنسان الذي ذكر في هذا الموضع من سلالة وهي النطفة التي استلت من ظهر الفحل من طين وهو آدم الذي خلق من طين، وعن ابن عباس قال: صفوة الماء، وعن مجاهد قال: من مِنى الرجل.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال معناه: لقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم وهي صفة مائه، وآدم هو الطين لأنه خلق منه، والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته سليله وسلالته لأنهما مسلولان منه ومن السلالة قول بعضهم(٢):

حملت به عضب الأديم غضنفراً ** سلالة فرج غير حصينا(٣)

وقول الآخر(٤):

وهل كنت إلا مهرة عربية ** سلالة أفراس غلها بغل(٥)

(ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ) وهو حين استقرت فيه نطفة الرجل في رحم المرأة ووصفه بأنه مكين لأنه مكن ذلك وهيئ له ليستقر فيه إلى بلوغ أمره(١).

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات (١٢-١٤).

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد بن مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار، سيد الشعراء المؤمنين، المؤيد بروح القدس، أبوالوليد، ويقال أبوالحسام الأنصاري الخزرجي البخاري ابن الفريعة، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، عاش ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام، توفي سنة٥٤هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ٥١٢/٢.

(٣) شرح ديوان حسان بن ثابت، عبدالرحمن اليرقوفي، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، دار الأندلس للطباعة والنشر، ص٤٣١.

(٤) هند بنت النعمان بن المنذر (ت:٧٤هـ-٦٩٣م)، بنت المنذر بن امرئ القيس اللخمية، نبيلة، وفصيحة، ولدت ونشأت في بيت الملك بالحيرة، وبعد وفاة أبيها على يد الملك كسرى أقامت دير بين الحيرة والكوفة عرف بدير هند الصغرى، عرض عليها خالد بن الوليد الإسلام، فاعتذرت بكبر سنها وعاشت طويلاً في ديرها، انظر: الأعلام٩٨/٨.

(٥) ورد البيت في لسان العرب، حرف اللام، فصل السين المهملة، ٣٣٩/١١.

(ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً) أي جعلنا النطفة قطعة دم متجمدة حمراء (فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً) أي جعلنا تلك القطعة من الدم قطعة لحم (فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا) أي جعلناها عظاماً (فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا) أي فجعلنا العظام مكسواً باللحم (ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ) يعني انتشاره حال كونه مخلوقاً آخر غير ما كان سابقاً وهو الإنسان الكامل الأجزاء الذي خلق فيه الروح وصار مدركاً للكليات والجزيئات(٢).

يقول صاحب الظلال: (هذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل عناصره وبكل خصائصه في تلك النطفة، كما يعاد من جديد ويتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب من النطفة إلى العلقة حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى وتعلق هذه بجدار الرحم، ومن العلقة إلى المضغة حينما تكبر هذه النطفة العالقة وتتحول إلى دم غليظ مختلط وتجئ مرحلة العظام فمرحلة كسو العظام باللحم)(٣).

ولما كانت مسألة خلق الإنسان فيها الكثير من العبر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التي يتقلب فيها الإنسان ناسب أن تختم الآية بقوله (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ) لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله في خلقه للإنسان لا تملك إلا أن تقول سبحان الله تبارك الله(٤).

والقرآن الكريم في خطابه للإنسان يحذره مما في طبيعته من عناصر الظلام التي خالطت عناصر النور فيه، حتى لا يطغي الظلام فيه على النور، وحتى لا يطفئ بأهوائه شعلة النور فيعمى ويقوى، يقول تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾(٥)

---

(١) جامع البيان١٠/١٨/٩.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، تأليف محمد عبدالكريم محمد المدرس، عني بنشره محمد علي العزة، ط٢(١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٨/٦.

(٣) في ظلال القرآن الكريم٤/١٨/٢٤٥٨.

(٤) تفسير الشعراوي١٦/٩٩٨١.

(٥) سورة العلق، الآيتان (٦-٧).

ذلك أن لسلطان الغني وبسطة الرزق سطوة على الإنسان ودعوة داعية إلى الغرور والطغيان، إذا هو لم يحرس نفسه من سطوة هذا السلطان، وقد يركب الإنسان مراكب الغرور والضلال حين يطغيه المال والجاه والسلطان فيلقي بنفسه في مهاوي الهالكين[١].

يقول الإمام ابن الجوزي[٢]: (عجيب لمن يعجب بصورته ويختال في مشيته وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء، فإن شئت فقل كسرة خبز معها تمرات، وقطعة من لحم ومزقة من لبن وجرعة من ماء ونحو ذلك طبخته الكبد فأخرجت منه قطرات مِنى فاستقرت في الأنثى فحركتها الشهوة فصبت وبقيت في بطن الأم، حتى تكاملت صورتها فخرجت طفلاً، وأما آخره فإنه يلقى في التراب فيأكله الدود ويصير رفاتاً، هذا خبر البدن، أما الروح عليها العمل، فإن توجت بالأدب وتقومت بالعلم وعرفت الصانع وقامت بحقه فما يضرها نقص المركب، وإن هي بقيت على ضعتها من الجهالة شابهت الطين بل صارت أخس حالة منه)[٣].

وخلاصة القول: كيف يحق للإنسان أن يتكبر على الله سبحانه وتعالى وهو الذي خلقه وأحسن خلقه وتصويره وأبدع في خلقه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، فواجبه مقابلة ذلك بالحمد والشكر والثناء وذلك بتقوى الله سبحانه وتعالى وإحسان العبادة إليه، وما ورد من الآيات في خلق الإنسان ليتفكر الإنسان في خلقه ويعرف قدر نفسه وبالتالي لا يحق له الفخر والكبر والغرور، ولا يطغى لحظ ناله في الدنيا فهو زائل لا محالة، ولا يتكبر على خلق الله وهو مخلوق من نفس المادة التي خلقوا منها، فالناس من آدم وآدم خلق من تراب، ولا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى، فلو وقف الإنسان على خلقه وتكوينه وتركيبه وتدبر ذلك لعرف حق ربه عليه ولما تعالى واستكبر.

---

(١) الإنسان في القرآن الكريم، الخطيب، ط١(١٣٩٨هـ-١٩٧٨م)، دار الحديث، القاهرة، ص١١١.

(٢) ابن الجوزي: جمال الدين أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن عبيدالله بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبدالله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد التميمي البكري الحنبلي، الإمام، الحافظ، المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق، صاحب التصانيف العديدة، ولد سنة٥١٠هـ، وله عدة مؤلفات منها تفسيره زاد المسير، تذكرة الأديب، صيد الخاطر، وغيرها، سير أعلام النبلاء٢١/٣٦٥.

(٣) صيد الخاطر، للإمام ابن الجوزي، راجعه ووضع مقدمته وعلق عليه علي الطنطاوي، حققه وصحح فهارسه وعناوين فصوله ناجي الطنطاوي، ط٢(١٤١٢هـ-١٩٩١م)، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ص١٠٧.

المطلب الثاني
محاسبة النفس والإقبال على الطاعة

من طرق التخلص من الغرور والكبر ومعالجته محاسبة النفس أول بأول، حتى يمكن الوقوف على العيوب وهي لا تزال في بدايتها فيسهل علاجها والوقاية منها، وإزالة أسباب الغرور والكبر من النفس وتأديبها حتى تقلع عن كل الأخلاق الذميمة وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)[١].

ومحاسبة النفس تكون بالإقبال على الطاعات وتقوى الله عزّ وجل يقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[٢].

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه ولتنظر نفس ما قدمت ليوم القيامة، قال الحسن وقتادة: قرب الساعة حتى جعلها كغدٍ ولا شك أن كل آت قريب، والموت لا محالة آت، ومعنى ما قدمت: يعني من خير أو شر، وقيل التقوى الأولى: التوبة فيما مضى من الذنوب، والثانية: اتقاء المعاصي في المستقبل[٣].

قال الإمام أحمد بن المنذر[٤] عن أبيه: قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار فجاءه قوم حفاة عراة محتابي النمار[١] أو العباءة متقلدي

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، ٣٧-كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم٤٣٦٠، ١٤٢٣/٣.

(٢) سورة الحشر، الآية (١٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن٢٩/١٨/٩.

(٤) أحمد بن المنذر بن جرير بن الجارود البصري أبوبكر القزاز، روى عنه مسلم، وقال أبوحاتم في الثقات حديثه صحيح، توفي بالبصرة سنة٢٠٣هـ، انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ أبوالحجاج يوسف المزي ٤٩٠/١.

السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر[٢] فتغير وجه الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى ما بهم من الفاقة[٣]، قال فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة فصلى فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[٤]، وقرأ الآية التي في الحشر ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٥] تصدق رجل من دناره من درهمه من ثوبه من صاع بره، من صاع تمره حتى قال: ولو بشق تمرة قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها أو قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً)[٦].

أمر الله بتقواه وهذا يشمل فعل ما أمر به وترك ما زجر عنه وهي قوله تعالى **(وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)** أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم **(إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)** أي أعلموا أنه عالم بجميع أحوالكم ولا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير[٧].

---

(١) محتابي النمار: أي لابسيها خارقين أوساطها وهي ثياب صوف فيما تنمير وأخذت من لون النمر، الأنمر: ما فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء، وهي نمراء سمي النمر بذلك للنمر التي فيه جمعها أنمار ونمر ونمار، والنمر ثملة فيها خطوط بيض وسود أو بردة من صوف تلبسها الأعراب، القاموس المحيط، ص٦٢٧.

(٢) مضر: قبيلة عظيمة من العدنانية كانت ديارهم حيز الحرم إلى السروات، وكانت ديارهم بالجزيرة ما بين دجلة والفرات مجاورة الشام وكانت لهم الرياسة في مكة، ويجمعها فخذان عظيمان خندق وقيس، معجم قبائل العرب١١٠٧/٣.

(٣) الفاقة: الفقر والحاجة، القاموس المحيط، ص١١٨٧.

(٤) سورة النساء، الآية (١).

(٥) سورة الحشر، الآية (١٨).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، ١٢-كتاب الزكاة، ٣-باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، حديث رقم١٠١٧، ٧٠٢/٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم٣٦٥/٤.

كرر الأمر بالتقوى في الآية للتأكيد والحث على ما ينفع في الآخرة، فإن الله تعالى لا تخفى عليه من أعمالكم وأحوالكم خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم صغيرها وكبيرها قليلها وكثيرها[١].

توضح الآيات القرآنية صفات المؤمنين الذين يحاسبون أنفسهم ويسارعون إلى الخيرات ويشعرون بذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾[٢].

تبرز الآيات سورة اليقظة والحذر في القلوب المؤمنة فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى، وهم يؤمنون بآياته ولا يشركون به ويأتون من الطاعات ما استطاعوا ولكنهم بعد هذا كله يؤتون ما أُتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم وهو في نظرهم قليل[٣].

عن عائشة[٤] رضي الله عنها أنها قالت: (يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزّ وجل قال: لا يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزّ وجل)[٥].

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة١٠٢/٢٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات (٥٧-٦١).

(٣) في ظلال القرآن٢٤٧٢/١٨/٤.

(٤) عائشة أم المؤمنين بنت الإمام الصديق الأكبر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوبكر، القرشية، التميمية، المكية، أم المؤمنين، زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وأمها هي أم رومان بنت عامر بنت عويمر بن عبد شمس الكنانية، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة قبل الهجرة، دخل بها في شوال سنة اثنين بعد غزوة بدر وهي بنت تسع سنوات، روت عن علماً كثيراً، حدث عنها عدد من الصحابة، انظر: سير أعلام النبلاء١٣٥/٢.

(٥) أخرجه ابن ماجة في سننه، ٣٧-كتاب الزهد، ٢٠-باب التعرف إلى العمل، حديث رقم٤١٩٨، ١٤٠٤/٢.

إن قلب المؤمن يشعر يد الله عليه ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة ومن ثم يستصغر كل عباداته ويستقل كل طاعاته إلى جانب آلاء الله ونعمائه، كذلك يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله[١].

قال الطبري: (يعني تعالى ذكره: إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب الله مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته، جادون في طلب مرضاته والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدقون، والذين يخلصون لربهم عبادتهم فلا يجعلون له فيها لغيره شركاً لوثن أو لصنم، ولا يراءون بها أحداً من خلقه ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه)[٢].

فصفات المؤمنين الصادقين بربهم الإشفاق والخشية من عذاب الله تعالى، ومن بلغ في الخشية إلى حد الإشفاق وهو كمال الخشية كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلاً ومن عقابه آجلاً فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي **(أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ)** فيه وجهان أحدهما: أن المراد يرغبون في الطاعات فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها، والثاني: أنهم يفعلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام **(وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ)** المعنى فاعلون السبق لأجلها أو الناس لأجلها[٣].

يسارعون في نيل الخيرات دون أولئك الكفرة الموصوفين بأضداد تلك الصفات **(وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ)** أي وهم لأجل تلك الخيرات يسعون في السبق ويظفرون بها أو هم لأجل نيلها يعتبرون من الجمع السابقين[٤].

ومن وسائل علاج الغرور والكبر دوام النظر في كتاب الله عزّ وجل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذلك يطلعنا على سير وأخبار الأنبياء والصالحين وكيف كانوا يخافون من الهفوات أن تقع منهم مع أن رصيدهم من الطاعات ضخم وكبير، حتى نقتدي

---

(١) في ظلال القرآن٤/١٨/٢٤٧٢.

(٢) جامع البيان١٠/١٨/٣١.

(٣) تفسير الرازي١٢/٢٣/٩٣.

(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن٦/٣٣.

ونتأسى بهم، فما سبق ذكره في وصف المؤمنين وكيف كانوا يحاسبون أنفسهم وحرصوا على التزام ما أمر به الله سبحانه وتعالى، وأيضاً فيما حكاه القرآن الكريم عن آدم وحواء ما جاء على لسانهما ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] وعلى لسان نوح عليه السلام قوله تعالى ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] وعلى لسان إبراهيم عليه السلام قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[3].

وكذلك بالوقوف على سير وأخبار السلف من هذه الأمة حيث كانوا يعملون العمل الكثير المراعى فيه الصدق والإخلاص، ثم لا يعولون عليه، بل إنهم يتهمون أنفسهم في كثير من الأحوال بالتقصير، فإن ذلك مما يحرك العواطف والأحاسيس للاقتداء بهم أو على الأقل المحاكاة.

جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: (لو يعلم الناس ما أنا فيه لأهالوا عليّ التراب)[4].

ولما حضرت الشافعي[5] الوفاة سأله بعض الأصحاب قائلاً له: كيف أصبحت يا أبا عبدالله، فأجابه . وهو الذي وصفه تلميذه أحمد بن حنبل بأنه كان كالشمس للدنيا والعافية للناس . بقوله: أصبحت عن الدنيا راحلاً وللأخوان مفارقاً ولسوء عملي ملاقياً وعلى الله عزّ وجل وارداً ولا أدري أيؤمر بي إلى الجنة، أو يؤمر بي إلى النار ثم أنشد:

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٣).

(٢) سورة هود، الآية (٤٧).

(٣) سورة الشعراء، الآية (٨٢).

(٤) آفات على الطريق ١/١٢٩.

(٥) الشافعي: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي، المطلبي، الشافعي، الحجازي، المكي، أبوعبدالله، أحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب الشافعية، ولد بغزة في فلسطين سنة (١٥٠هـ-٧٦٧م)، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها وبمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، تعلم القرآن على سفيان بن بن عيينة، توفي في مصر، ودفن بها سنة(٢٠٤هـ-٨١٩م)، وله عدة مؤلفات، انظر: معجم المؤلفين٣/١١٦.

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ** جعلت الرجاء مني لعفوك سلماً

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ** بعفوك ربي كان عفوك أعظما[1][2]

فلابد من دوام النظر في سيرة السلف وكيف كانوا يتعاملون مع أنفسهم حين يرون منها مثل هذا الخلق، فإن ذلك يحمل على الاقتداء والتأسي في استئصال هذا الداء وقطع الطريق عليه أن يعود إلى النفس مرة أخرى، ولابد من تعريض النفس بين الحين والآخر لبعض المواقف التي تقتل كبرياءها وتضعها في موضعها الصحيح، كأن يقوم صاحبها بخدمة الذين هم أدنى منه في المرتبة أو يقوم بشراء طعامه من السوق وحمل أمتعته بنفسه على نحو ما أثر عن كثير من السلف، روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره فقال له أبوعبيدة عامر بن الجراح[3]: لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض، فصك صدره وقال: أوه لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله. وأنه رضي الله عنه لما قدم الشام استقبله الناس وهو على بعيره فقيل له: لو ركبت برذوناً[4] تلقى به عظماء الناس ووجوههم فقال عمر رضي الله عنه: لا أراكم هاهنا، إنما الأمر من هاهنا وأشار بيده إلى السماء خلوا سبيل حملي[5].

وقد وعي سلف الأمة ما يجره الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها على المرء من وبال، فأعرضوا عنها بمقدار ما يتزودون منها للآخرة وجرى ذلك كثيراً على ألسنتهم، يقول

---

(١) آفات على الطريق ١/١٣٠.

(٢) ديوان الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح إميل يعقوب، ط١، ١٩٩١م، بيروت، دار الكتاب العربي، ص١١٥.

(٣) أبوعبيدة عامر بن الجراح القائد العربي، أشتهر بالشجاعة والتفاني في خدمة الإسلام، سماه النبي صلى الله عليه وسلم الأمين، كانت له قيادة الجند في كثير من المواقع، أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى نجران ليعلم الناس الإسلام، أرسله أبوبكر إلى الشام وجعل له عمر الرياسة العامة على جيوش المسلمين، توفي في طاعون عمواس، انظر: الإصابة٤/٤٢٠.

(٤) برذوناً: البرذون الدابة، قال الكسائي: الأنثى من البراذين برذونة، مختار الصحاح١/٤٧.

(٥) مختصر منهاج القاصدين، للإمام أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، ت:٦٨٩هـ، قدم له وضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه علي حسن علي عبدالحميد، ط١(١٤١٥هـ-١٩٢٤م)، دار النجار للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ، مكتبة الذهبي، ص٢٦٠.

علي رضي الله عنه: (ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة ولكل واحد منها بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل)[١].

وكما أشار الإمام علي كرم الله وجهه إلى عدم الركون إلى الدنيا . نجد أن من أسباب الغرور والكبر الركون إليها . فقد ينغمس الشخص في ملذاتها وتتأخر توبته، وقد لفت القرآن الكريم إلى هذا السبب والباعث من خلال ذم الدنيا والتحذير منها، إذ اتخذها الناس هدفاً أو غاية قال تعالى ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[٣] وقال صلى الله عليه وسلم: (تعس عبدالدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة[٤] إن أعطى رضي وإن لم يُعط سخط وتعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مُغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساعة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يُشفع له)[٥][٦].

(وإذا شيك فلا انتقش) المعنى إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش، وتقول نقشت الشوك إذا استخرجته[٧].

فأولئك السلف قال الله تعالى فيهم ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾[١]، قال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله٣/٨/١١٠.

(٢) سورة الحديد، الآية (٢).

(٣) سورة يونس، الآية (٧).

(٤) الخميصة: وهي ثوب خز أو صوف مُعلم وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وكانت لباس الناس قديماً وجمعه الخمائص، النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجوزي ابن الأثير (٥٤٤هـ-٦٠٦هـ)، تحقيق محمود محمد الطنطاوي وطاهر أحمد الزاوي، دار إحياء التراث، بيروت٩/٨١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الحراسة الغزو في سبيل الله٢/٤/٤١، وكتاب الرقاق، باب ما يتقي من فتنة المال٣/٨/١١٤-١١٥.

(٦) آفات على الطريق١/١٢١.

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله٦/١٠٤.

كانت لله عزّ وجل أمضاها، وقال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همه فليس يعمل عبد حتى يهم فإن كان له مضى وإن كان عليه تأخر[٢].

وصف الله عزّ وجل محاسبتهم أنفسهم في أعمال جوارحهم وضمائر قلوبهم بالإخلاص له، وفي السنة قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: (من غزا لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى)[٤]، وروي عن شداد بن أوس[٥] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت)[٦]، وقوله دان نفسه حاسب نفسه وهي المحاسبة في لغة العرب[٧].

إن الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال تسهيل يئول إلى الهلاك، وهذه حالة أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها[٨].

وترى الباحثة أن خير وسيلة لمعالجة النفس في كل آفة تصيبها هو المراقبة والمحاسبة، محاسبة النفس في كل ما يصدر منها من عمل والتصدي له في بدايته بالحسم والبتر حتى لا يصيبها ما كان سبباً في هلاك غيرها من غرور وكبر وحسد وطغيان وفخر وغيرها من الآفات، فمحاسبة النفس ومراقبة الله تعالى طريق النجاة وهو الأمان، وقد ضرب السلف في ذلك أروع الأمثال وهم قدرتنا وأسوتنا.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٦٥).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٤٦/٣/٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم١٦٨، ٦٣/١، ، ابن ماجة في سننه، ٢٩-باب في النية، حديث رقم٤٢٢٧، ١٤٣/٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، طبعة الرياض، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، ١٠٩/٢.

(٥) شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر، يكنى أبا يعلي، وكانت له عبادة واجتهاد، وعن أبي الدرداء أنه كان يقول: إن لكل أمة فقيهاً وإن فقيه هذه الأمة شداد بن أوس، نزل بفلسطين ومات بها سنة ثمان وخمسين وهو ابن خمس وسبعين سنة، انظر: صفة الصفوة ٧٠٨/١.

(٦) أخرجه ابن ماجة في سننه، ٣٧-كتاب الزهد، ٣١-ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم٤٢٦٠، ١٤٢٣/٢.

(٧) الرعاية لحقوق الله، المحاسبي، ص٥٤.

(٨) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٩٩/١.

المطلب الثالث
الوقوف على نتائج وعواقب الغُرور والكِبرْ

الوقوف على نتائج وعواقب المتكبرين وما حدث لهم جراء تكبرهم وغرورهم يجعل النفس تسعى جاهدة للتخلص من داء الكبر ومن الغرور قبل أن يأتيها يوم تتمنى فيه الرجعة إلى الدنيا لتدارك التقصير فلا تجاب قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[1].

أي حتى إذا جاء أحدهم الموت الذي لا مرد له وظهرت له أحوال الآخرة قال تحسراً على ما فرط فيه الإيمان والطاعة (رَبِّ ٱرۡجِعُونِ) أي ردني إلى الدنيا لعلي أعمل في الإيمان الذي تركته عملاً صالحاً، وقيل فيما تركته من المال أو من الدنيا، و(كَلَّآۚ) ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لها، أنها أي قوله (رَبِّ ٱرۡجِعُونِ) كلمة هو قائلها لا محالة لتسلط الحسرة عليه[2].

و(لَعَلِّي) في الآية للترجي وهو إما راجع للعمل والإيمان لعلمه بعدم الرجوع أو للعمل فقط لتحقيق إيمانه إن رجع، وقيل فيما تركت من المال أو الدنيا جعل مفارقة ذلك تركاً له ويجوز أن تكون لعل للتعليل، عن جابر بن عبدالله[3] رضي الله عنه

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان (٩٩-١٠٠).

(٢) تفسير أبوالسعود٤/٤٣١.

(٣) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حزام بن كعب بن تميم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي، يكنى أبا عبدالله، وأبا عبدالرحمن، وأبا محمد، أحد المكثرين عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه جماعة من الصحابة، وله ولأبيه صحبة، قال: غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين غزوة بنفسه، وشهدت فيها تسع عشرة غزوة، قيل إنه مات سنة ثلاث وسبعين وإنه عاش أربعاً وتسعين سنة، الإصابة١/٤٣٤.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه فعند ذلك يقول: رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت)[1].

وهذا الخبر يؤيد أن المراد مما تركت من المال ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي قوله رب ارجعون كلمة هو قائلها لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة وتسلط الندم عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي أمامهم برزخ حاجز بينهم وبين الرجعة إلى يوم يبعثون من قبورهم وهو يوم القيامة[2].

لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويوقن أنه ميت تنكشف له الحقائق ويرى ما لا نراه نحن كما في قوله تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3]، ويتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو لا يزال يحتضر لأنه يرى الحقيقة التي كان ينكرها ويكذب بها قائلاً إنني تركت كثيراً من أعمال الخير، فلعلى إن رجعت استدرك ما فاتني من الصالحات[4].

فالإنسان السوي الفطرة هو الذي يعمل لهذا اليوم ويستعد له حتى لا يتمنى الرجوع حيث لا تتحقق له أمنية كهذه في مثل هذا اليوم، فيجعل من الدنيا مطية للآخرة آخذاً فيها بالاعتبار بمن سبقه وأخذ نصيباً من هذه الدنيا من مال وجاه وسلطان وتجبر وتكبر فيها ما كان جزاءه ومصيره وما حصده من كبره وغروره.

فالكبر من الأمراض التي تصيب الفطرة فتنحرف بها عن صورتها السوية وتوقعها في الشرك، فالكبر درجات تبدأ بالاستكبار على الناس وتنتهي بالاستكبار على عبادة الله، وكلها خلق مقيت لا يصدر عن نفس سوية مستقيمة وغالباً ما يكون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم٤٦٢، ٧٧٢/١

(٢) روح المعاني، الآلوسي٢٦٢/٩.

(٣) سورة "ق"، الآية (٢٢).

(٤) تفسير الشعراوي١٠١٤٨/١٦.

الكبر في نفوس من حصلوا على شيء من متاع الحياة الدنيا، وبيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم قصص الكثير من الذين تكبروا على الله عزّ وجل وعلى رسله وعلى خلقه مبيناً عاقبة ونتائج ذلك الغرور والكبر كما في قصة النمرود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾[1]، فكان الكبر من أسباب شركه وكفره وقصة فرعون والوليد بن المغيرة ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[2] وهذا الكبر في عبادة الله وإتباع الحق أوضح ما يكون في الجاهلية المعاصرة فهو ليس وقفاً على أصحاب المال والجاه والسلطان إنما ترى أتفه الناس شأناً يستكبر عن عبادة الله[3].

القرآن الكريم أورد قصص أولئك المستكبرين ودوافعهم للكبر ونتائج كبرهم وما جنوه من ذلك الترفع والتعالي وعدم الإذعان للحق، حتى يكون عبرة لمن يأتي بعدهم ويسلك مسلكهم، فيرتدع بالوقوف على تلك العقوبات والنتائج والرجوع إلى الله عزّ وجل بالتوبة والاستغفار لمن بدرت منه بادرة كبر وغرور، حتى لا تحل عليه لعنة الله تعالى كما لعن إبليس، قال سفيان بن عيينة[4] رضي الله عنه: من كانت معصيته في شهوة فأرج له التوبة فإن آدم عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر فأخشى عليه اللعنة فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن[5].

ويعتبر الكبر حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وأخلاق المؤمنين لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع ولا ترك

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٨).

(٢) سورة المدثر، الآية (١١).

(٣) ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، ص٢٢١.

(٤) سفيان بن عيينه بن ميمون الهلالي الكوفي، المكي، أبومحمد، محدث، فقيه، ولد بالكوفة في النصف من شعبان، طلب الحديث، ولقي الكبار وحمل عنهم علماً جماً، وجمع وصنف وازدحم الخلق عليه، وانتهى عليه علو الإسناد، ورحل إليه من البلاد، وتوفي في النصف من شعبان، من آثاره تفسير القرآن الكريم وجزء فيه أحاديث، معجم المؤلفين١/٧٧٢.

(٥) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني١/٢٤١.

الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، لا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه[1].

وخلاصة القول: لابد من تذكير النفس بالعواقب والآثار المترتبة عليه سواء أكانت عواقب دنيوية أو أخروية فلعل هذا التذكير يحرك النفس من داخلها ويحملها على التوبة وأن تتدارك أمرها قبل ضياع العمر، وذلك بالنظر في سير وأخبار المتكبرين كيف كانوا وإلى أي شيء صاروا من إبليس والنمرود إلى فرعون وإلى هامان وقارون وأبي جهل وأبي بن خلف، وسائر الطغاة والجبارين والمجرمين في كل العصور والبيئات وبمختلف المكان والزمان مما يحمل النفس على التوبة والإقلاع خشية أن يحل بها نفس المصير وخير معين على ذلك كتاب الله عزّ وجل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وكتب التراجم والتاريخ.

(١) مختصر منهاج القاصدين، المقدسي، ص٢٩.

المطلب الرابع
التواضع

مفهوم التواضع وأهميته:

معنى التواضع في اللغة: وضع الشيء ألقاه من يده وحطه ضد رفعه، ووضع الشيء إلى الأرض أنزله، وضع الشيء في مكانه أثبته فيه، ووضع فلان من فلان حط من قدره ودرجته، الموضع المكان الذي يوضع فيه الشيء[١].

وضع: الواو والضاد والعين أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه، ووضعته بالأرض وضعاً، ووضعت المرأة ولدها، وضع في تجارته بوضع خسر[٢].

الوضع: مصدر وضعت الشيء ووضع في سيره وضعاً إذا أسرع والوضع أن تحمل المرأة في آخر طهرها في مقبل الحيضة وهو التضع[٣].

تواضع: تذلل وتخاشع[٤].

والتواضع في الاصطلاح: من الفعل تواضع: وهو مطاوع الفعل وضع ويوصف به الإنسان الذي يضع نفسه دون المستوى الذي يحتله . واقعياً . ليغدوا في مستوى الإنسان الذي يتعامل معه، ذلك لأن الإنسان بحكم فطرته يفضل أن يتعامل مع غيره من منظور المساواة معامة الند للند، فلا يتطاول عليه أو يترفع عنه غيره بأي مقوم من مقومات التفاضل

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، ص٥٧٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن زكريا١١٧/٦.

(٣) المشوف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم، لأبي البقاء٨٢٨/٢.

(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩٤٧.

سواء أكان ذلك بأصل أو حسب أو نسب أو مكانة أو منصب أو مركز ومؤهل، أو ثروة، والتواضع بهذا المفهوم يحقق التقبل والرضا والإلفة والمحبة والتعاون والتعاضد بين المتعاملين به، لأنه يزيل الحواجز المصطنعة فيما بينهم ويحول دون استشراء مشاعر الكره والبغض والنفور التي تهدم جسور الثقة بين الناس وتحول دون توافقهم وتآزرهم وعناية بعضهم ببعض(١).

والتواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق، يعني أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد والدخول تحت رقه، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بضده فقال: (الكبر بطر الحق وغمط الناس)(٢)، فبطر الحق رده وجحده وغمط الناس احتقارهم وازدرائهم ومتى احتقرهم وازدراهم دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها(٣).

قال الفضيل بن عياض: التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته منه ولو سمعته من أجهل الناس قبلته، وللتواضع فوائد ومنافع تعود على الأفراد والجماعات بالخير الكثير وإن المتواضع قريب إلى الناس، محبب إلى نفوسهم ضد المتكبر فإنه

---

(١) مكارم الأخلاق في الإسلام نظريةً وتطبيقاً، د.أحمد رجب الأسمر، ط١(١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ص٤٧٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ٣٩-باب في تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم٤٧، ٩٣/١.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، تحقيق عماد عاص، ط١(١٤١٦هـ-١٩٩٩م)، دار الحديث، القاهرة، ٣١٨/٢.

بغيض إليهم ثقيل عندهم، وكلما دنا المتواضع من الناس ارتفعت منزلته عندهم وعظم في عيونهم وثقل ميزانه عندهم واستفاد منهم وأفادهم[١].

الفرق بين التواضع والمهانة:

إن التواضع يتولد من العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته وجلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق التواضع، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق، وقيل هو رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته وفضيلته لا تكاد تظهر في أكثر الناس، وهذا كان في علماء السلف كثير وهو من باب التفضل لأن المتواضع يترك بعض حقه والتواضع متوسط بين الكبر والضعة[٢].

والضعة والمهانة وضع الإنسان نفسه في منزلة تذري به من الدناءة والخسة وابتذال النفس في سبيل شهواتها الفاسدة فتجد الوضيع يقف في المواقف التي تذري به من أجل الحصول على وظيفة أو مال أو جاه أو امرأة أو نحو ذلك فلا يبالي أن يذل لمن دونه أو يتملق لمن يهينه أو يقف على باب من يستقله ويظهر الاشمئزاز منه وهو لا يبالي بالإلحاح عليه والوقوف بين يديه ذليلاً خاضعاً ولا شك أن هذه صفة ذميمة[٣].

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز الحمر السلماني، ط١٨، ١٤٠٨هـ، دار الحديث، القاهرة، ص٩١١.

(٢) علو الهمة، محمد أحمد إسماعيل المقدم، (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)، الدار العالمية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ص٢٣.

(٣) موارد الظمآن، ص٩١٠.

أهمية التواضع:

من المعروف أن المساواة المطلقة بين الناس التي يتطلع إليها بعض الناس أو أكثرهم تعتبر استحالة بل ومهلكة اجتماعية، فهنالك اختلاف بين الناس سواء أكان في النواحي السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية فلا استمرارية لمجتمع كل من فيه حكام أو قادة أو أطباء أو جنود أو مهندسين، إذن فمن يحكم من؟ ومن يخدم من؟ فإن الوضع الأمثل للمجتمع الإنساني هو التمايز الذي يتم به التكامل الاجتماعي، إلا أن طبيعة النفس البشرية تأبى على صاحبها أن يتعالى عليها أحد أو يتميز أو يتكبر أو يظلم ويتخذ الغطرسة أسلوباً للتعامل معها، والسبيل الأمثل هو التزام خلق التواضع الذي يرسخ الاحترام والتقدير والمحبة بين الجميع[1].

والإسلام يؤكد على معالجة التنافر بين الناس بالتأكيد على التزام خلق التواضع، وعليه نخلص إلى أن التواضع خلق كريم يعود بالخير على صاحبه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه، والكبر خلق ذميم يعود بالضرر على صاحبه والمجتمع، والمسلم الحق هو الذي يأخذ نفسه بالتواضع ليكون عند الله محموداً وعند الخلق محبوباً.

فضل التواضع:

إذ حرمت النصوص القرآنية الاستكبار بغير الحق، وأبانت أن الكبر من قبائح أخلاق الإنسان، حثت على التواضع ابتغاء مرضاة الله، ورغبت فيه، وأبانت أن من تواضع لله كافأه الله على تواضعه بالرفعة

---

(١) مكارم الأخلاق، أحمد رجب الأسمر، ص٤٧٦.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تواضع أحدُ لله إلا رفعه الله)[1]، وهذا من سنن الله في عباده كما أن من استكبر وتعالى على خلق الله أذله الله[2].

ولما كان التواضع من الأخلاق التي تملك القلوب بالمحبة رغب الإسلام بالتواضع وحث عليه، ومجد المتواضعين وأثنى عليهم ووعدهم بالثواب الجزيل، قال تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[3]، وقوله ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[4].

وفي سنته صلى الله عليه وسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وأن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)[5]، والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم ويتصنعون القول

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٥-كتاب البر والصلة والآداب، ١٩-باب استحباب العفو والتواضع، حديث رقم٢٥٨٨، ٤/٢٠٠١.

(٢) الأخلاق الإسلامية، ص٧٢٩.

(٣) سورة القصص، الآية (٨٣).

(٤) سورة السجدة، الآية (١٥).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، ٣٤-باب البر والصلة، ٧١-باب ما جاء في معالي الأخلاق، حديث رقم٢٠١٨، ٤/١٣٧.

تصنعاً مع التعاظم به والتعالي على الناس فيرجع إلى دافع الكبر، وعن أنس رضي الله عنه قال: (إن العفو لا يزيد العبد إلا عز فأعفوا يعزكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نما فتصدقوا يرحمكم الله)[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم)[٢]، الحديث يصور حالة تدرج المستكبر في سلم الاستكبار والانتفاخ حتى يكون جباراً من الجبارين، وعن حارثة بن وهب[٣] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر)[٤]، العتل[٥] هو الجافي شديد الخصومة بالباطل، الجواظ[٦] الجموع المنوع أو هو المثال المتكبر أو هو الفاجر[٧].

وعن عياض[٨] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد)[١].

---

(١) أخرجه ابن حسام الدين الهندي في كنز العمال، كتاب الزكاة، قسم الأقوال، حديث رقم١٥٧٥٩، ١٢٦/٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٣٤-كتاب البر والصلة، ٦١-باب ما جاء في الكبر حديث رقم٢٠٠٠، ١٣٠/١.

(٣) حارثة بن وهب الخزاغي أخو عبيدالله بن عمر بن الخطاب، روى عن أبوإسحق السبيطي، ومعبد بن خالد الجهني، انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير بن الحسن محمد بن الجوزي (ت:٦٣٠م)، مكتبة الشعب٤٣٠/١، الإصابة١٩٨/٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب في الكبر٢١٦/٨/٣.

(٥) العتل: الأكول المنوع، الجافي الغليظ والرمخ الغليظ وداء عتيل شديد، القاموس المحيط، ص١٣٣٠.

(٦) الجواظ: الضخم المختال والكثير الكلام، والمستكبر الجافي، جاظ: اختال في مشيه، القاموس المحيط، ص٨٩٧.

(٧) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري٣١١/٤.

(٨) عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد أبوسعد الفهري، ممن بايع بيعة الرضوان، واستخلفه قرابته أبوعبيدة بن الجراح لما احتضر على الشام، حدث عنه جبير بن نفير وغيره، وكان خيراً صالحاً زاهداً

وأبان الله سبحانه وتعالى أنه لا يؤمن بآيات الله عند تذكيره بها إلا الذين يخضعون لربهم ويسبحون بحمده وهم لا يستكبرون فلا يمنعهم كبر في صدورهم عن الخضوع لله والتسبيح بحمده، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢).

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا) أي وعظوا بها، (خَرُّواْ سُجَّدًا) يعني سقطوا على وجوههم ساجدين (وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) يعني صلوا بأمر ربهم، وقيل قال سبحان الله وبحمده (وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) يعني عن الإيمان به والسجود له(٣).

(خَرُّواْ سُجَّدًا) لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام (وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) عن الانقياد بها كما يفعله الجهلة من الكفرة(٤).

(وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) أي ونزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من الأمور التي من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التي

سخياً، وهو الذي افتتح الجزيرة صلحاً، أمره عمر على الشام فعاش بها نحواً من عامين وقيل عاش ستين سنة ومات سنة عشرين بالشام، شهد الحديبية، وكان أحد الأمراء الخمسة يوم اليرموك، سير أعلام النبلاء٣/٣٥٤.

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، ٣٧-كتاب الزهد، ٢٣-باب البغي، حديث رقم٤٢١٤، ١٤٠٩/٢.

(٢) سورة السجدة، الآيتان (١٥-١٦).

(٣) تفسير الخازن٣/٤٠٤.

(٤) تفسير القاسمي٨/٤١.

أجلها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيق للاهتداء بها (وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) الحال أنهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عما فعلوا التسبيح والتحميد[١].

من لطائف الآية:

التصديق والتكذيب ضدان والضدان لا يجتمعان، التكذيب هو جحود واستكبار والتصديق هو سجود وتحقيق، فمن أتصف بأحد القسمين أمحى عنه الثاني، ويقال كيف يستكبر من لا يجد كمال راحته ولا حقيقة أنسه إلا في تذلله بين يدي معبوده ولا يؤثر آجل جحيمه على نعيمه[٢].

دلّ هذا على أن عامل الكبر من أخطر العوامل الصارفة عن الإيمان بالله تعالى وآياته وأثنى الله على الملائكة بأنهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم فقال تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾[٣]، يريد بالذين الملائكة، وقوله (عِند) إنما يريد في المنزلة والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان، ثم وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود[٤].

وفي قوله (وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ) قال الزمخشري: (يختصونه بالعبادة ولا يشركون به غيره وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين)[٥].

إن الملائكة مع جلالة قدرهم وعلو أمرهم يعبدون الله ويذكرونه، وفائدته أنكم إن استكبرتم عن عبادته فمن هو أعظم حالاً منكم لا يستكبر عنها، إنما

---

(١) تفسير السعود٥/٢٠٤.

(٢) لطائف الإشارات٣/٢٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية (٢٠٦).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٦/١٩٨.

(٥) الكشاف٢/١٨٦.

قال عند ربك تشريفاً للملائكة بإضافتهم إلى نفسه **(وَيُسَبِّحُونَهُۥ)** أي ينزهونه عما لا يليق به **(وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ)** أي يخضعون وقيل يصلون[1].

كما قال تعالى ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[2]، **(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ)** كما قال تعالى ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ**﴾[3]، وقوله **(وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)** أي سجدوا لله غير مستكبرين على عبادته **(يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ)** أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله **(وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)** أي مثابرين على طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره[4].

وفي قوله **(وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)** قولان: أحدهما: أنه من صفة الملائكة خاصة قاله مقاتل، والثاني: أنه عام في جميع المذكورات[5].

فالملائكة خاضعون لله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وصفهم الله تعالى بأنهم لا يستكبرون أي أنهم ليسوا كإبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين[6].

كما خص الله سبحانه وتعالى الملائكة بالذكر بقوله ﴿**وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ**﴾[7]، **(وَلَهُۥ مَن**

---

(١) مجمع البيان٨/٧٩٣.

(٢) سورة النحل، الآيتان (٤٩-٥٠).

(٣) سورة الرعد، الآية (١٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم٢/٥٩٣.

(٥) زاد المسير في التفسير٤/٣٣١.

(٦) زهرة التفاسير٨/٤١٩٠.

(٧) سورة الأنبياء، الآية (١٩).

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ) يعني عبيداً وملكاً وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم (**وَمَنۡ عِندَهُۥ**) يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم (**لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ**) يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها (**وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ**) لا يعيون ولا يتعبون وقيل لا ينقطعون عن العبادة[1].

(**وَمَنۡ عِندَهُۥ**) العندية عندية مكانة وتشريف فيكف بكم تستكبرون عن عبادته[2].

عبر عنهم بذلك إثر ما عبر عنهم بمن في السموات لكرامتهم عليه عزّ وجل وعلا وزلفاهم عنده بمنزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل (**لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ**) أي لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيراً عنها (**وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ**) ولا يكلون[3].

قال الرازي: (إن كل المكلفين في السماء والأرض هم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه (**وَمَنۡ عِندَهُۥ**) المراد بهم الملائكة بإجماع الأمة لأنه تعالى وصفهم بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة فكأنه تعالى قال: الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر التمرد عن طاعته)[4].

---

(١) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشهير بالخازن (ت:٧٢٥هـ)، ضبطه وعلق عليه وصححه عبدالسلام محمد علي شاهين، ط١(١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٢٢/٣.

(٢) التفسير الواضح٥٢٢/١٧/٢.

(٣) تفسير أبوالسعود٣٢٩/٢٤.

(٤) تفسير الرازي١٢٨/٢٨.

وكان هذا في شأن خلق الله سبحانه وتعالى ومن تواضع له وفي وصف لملائكته فالله سبحانه وتعالى لا يحب الذين يستكبرون على عباده ولا يحب الذين يريدون علواً في الأرض، والناس أيضاً يكرهون من يستكبر عليهم ويكرهون كل ظاهرة تدل على الكبر في الأنفس.

وجاء في وصف من تواضع من عباده قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1] (وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ) قيل هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل وإلا فالخلق كلهم عباد الله[2].

قال ابن قتيبة: إنما نسبهم إليه لاصطفائه إياهم[3].

(ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا) هذا وصف سيرتهم بالنهار ويمشون هوناً حال أو صفة للمشي بمعنى هينين أو بمعنى مشياً هيناً، والهون الرفق واللين ومنه الحديث: (أحبب حبيبك هوناً ما)[4]، والمعنى أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع، ولا يضربون بأقدامهم أشراً وبطراً ولا يتجبرون لأجل الخيلاء، وعن ابن زيد قال: لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علواً في الأرض[5].

يمشون حلماء متواضعين، يمشون في اقتصاد، والقصد والتؤدة وحسن السمت[6] من أخلاق النبوة، وقال عليه الصلاة والسلام: (يا أيها الناس عليكم

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٦٣).

(٢) تفسير الخازن٣/٣١٨.

(٣) زاد المسير٧/٢٢.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، ٢٥-كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض، حديث رقم١٩٩٧، ٤/٣٦٠.

(٥) تفسير الرازي١٢/٢٤/٩٣.

(٦) السمت: الطريق وهيئة أهل الخير والسير على الطريق بالظن وحسن النمو وقصد الشيء، مختار الصحاح١/٣١٢.

بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع)[1]، (عليكم بالسكينة) أي في السير والمراد السير بالرفق وعدم المزاحمة (فإن البر ليس بالإيضاع) أي السير السريع، فبين صلى الله عليه وسلم أن تكلف الإسراع في السير من البر أي مما يتقرب به[2].

وروي عنه صلى الله عليه وسلم في صفته أنه كان إذا زال زال تقلعاً[3] ويخطوا تكفوءاً ويمشي هوناً ذريع المشية[4] إذا مشى، كأنما ينحط من صبب)[5][6].

قال زيد بن أسلم: كنت أسأل من تفسير قوله (**ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا**) فما وجدت من ذلك شفاء فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض[7].

وقال ابن عباس: بالطاعة والمعروف والتواضع، وقال الحسن: حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا، وقيل: لا يتكبرون على الناس.

قال القرطبي: (وهذه كلها معاني متقاربة ويجمعها العلم بالله والخوف منه والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابة)[8].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسكينة لأفاضته عليهم بالسوط٢/١٧٦.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الحج، باب أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالكسينة لأفاضته عليهم بالسوط٣/٦٤١.

(٣) تقلع: أي إذا مشى كان يرفع رجليه رفعاً بائناً لا يمشي اختيالاً وتنعماً، القاموس، ص٩٧٦.

(٤) ذريع المشية: الخفيف السير، والواسع الخطو، القاموس، ص٨٥٥.

(٥) ينحط من صبب: الجط الوضع والحدر من علو إلى سفل، القاموس، ص٨٥٥، الصبب: نهر أو طريق يكون في حدور وما أنصب من الرمل وما أنحدر من الأرض، القاموس، ص١٣٣.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التاريخ٢/٦٠٦.

(٧) تفسير الرازي١٢/١٤/٩٣.

(٨) الجامع لأحكام القرآن٧/١٣/٦٨.

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا) قال الفضيل بن عياض: إن جهل عليهم حلم وإن أسئ إليه أحسن وإن حرم عليه أعطى وإن قطع وصل[1].

قال الطبري: (إذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القول أجابوهم بالمعروف من القول والسداد من الخطاب)[2].

إذا تعرض لهم غيرهم من الناس بسوء ردوا عليه بالخير وألقوا فيه سلام وتسليم، وفيه العفو والصفح، فهم يقابلون السيئة بالحسنة حيث صدرت السيئة من جاهل حقيقة أو حكماً[3].

هذا وصف لعباد الله سبحانه وتعالى خلقهم التواضع والتسامح وتحلو باللين والعفو وجاء أبلغ وصف لهم **(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا)** فهذا منتهى الصفح واللين والتسامح وهو التواضع لعباده وخلقه، وهذا خلق نبيل دعا إليه الإسلام الذي يعتبر التواضع محمدة فيؤكد على التزامه، ويعتبر الكبر مذمة فيرفضه ويعتبره آفة من الآفات التي تفتك بالمجتمع الإنساني وعامل من عوامل الهدم الاجتماعي حيث تعم الأحقاد وتتعمق الكراهية بين الناس ويتمزق المجتمع، فقاعدة التوافق الاجتماعي هو التواضع حيث يحقق ترابط اجتماعي متكامل، يؤدي إلى سيادة شفافية النفوس، فلا يحقد أحد على أحد ولا يحسد أحد على أحد، وتتعاظم الإلفة ويسود التراحم بين الناس، ويتحقق بذلك التماسك الاجتماعي الذي يدعو إليه الإسلام من خلال الدعوة للالتزام بالأخلاق النبيلة.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٩/٢٧٢.

(٢) جامع البيان ١١/١٩/٣٤.

(٣) التفسير الواضح ٢/١٩/٧٣٥.

في تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته

التواضع من الأخلاق التي تجلب المحبة وتملك القلوب بها وتخلق الإلفة بين الناس والتعاون، كان خلقه عليه الصلاة والسلام التواضع فكان صلوات الله وسلامه عليه يخفض جناحه للمؤمنين، فلا يتعاظم عليهم ولا يستكبر، ويجلس بينهم كواحد منهم، حتى يدخل من لا يعرفه بين أصحابه فيقول أيكم محمد صلى الله عليه وسلم.

أمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخفض جناحه للمؤمنين مع أنه صلى الله عليه وسلم رفيع المكانة في نفسه عظيم المنزلة عند الله قال تعالى ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] أي ألن لهم جانبك كقوله ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[2][3]. أ

خفض الجناح عبارة عن السكون وترك التعصب والإباء، قال ابن عباس: أرفق بهم ولا تغلظ عليهم[4].

أخفض جناحك للمؤمنين أي ألن جانبك لهم وتواضع معهم فلو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر[5].

قال الزمخشري: (تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء)[6].

قال أبوالسعود: (أي تواضع لهم وأرفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفساً من إيمان الأغنياء وقل إني أنا النذير المبين المظهر لنزول عذاب الله وحلوله)[7].

---

(١) سورة الحجر، الآية (٨٨).

(٢) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم٢/٥٧٧.

(٤) زاد المسير في علم التفسير٤/٣٠٤.

(٥) التفسير الواضح٢/١٤/٢٦٣.

(٦) الكشاف٢/٥٦٥.

(٧) تفسير أبوالسعود٤/٣٢.

فهذا الخلق جعل لدعوته صلى الله عليه وسلم قبول ولابد لكل داعية من التأسي به صلى الله عليه وسلم والاقتداء به حتى تقبل دعوته، فنجد صحابته كان التواضع واللين خلقهم اقتداء به عليه الصلاة والسلام، والأمر لمن بعدهم من المؤمنين بأن يلتزموا بنهجهم القويم.

في توجيه وأمر القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم في تعامله مع من تبعه خير معين لقبول دعوته وهي رسالة لكل داعية كما جاء في آية أخرى ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، أي أضف إلى دعوتك لين الجانب وحسن الخلق وطيب العشرة لمن أتبعك وسار على طريقك حتى يكون لكلامك وقع ولشخصك مكانة في القلوب ولسلوكك في الناس تأثير[2].

أي لين جانبك لهم، مستعار من حال الطائر فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه، ومن للتبيين لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره، أو للتبعيض على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان فحسب[3].

ومن تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم وكانت الأمة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت، (وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل لعق أصابعه الثلاث)[4]، وكان صلى الله عليه وسلم يكون في بيته في خدمة أهله[5]، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله[6]، ويعلق البعير ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما ويبدأ من لقيه بالسلام ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء[7].

---

(١) سورة الشعراء، الآية (٢١٥).

(٢) التفسير الواضح٢/١٩/٧٧٧.

(٣) تفسير أبوالسعود٥/٦٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، حديث رقم٢٠٣٢، ٦/١٣١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله٣/٨/٢٣٩.

(٦) أخرجه الحافظ عبدالرازق في مصنفه، الإمام الحافظ عبدالرزاق بن همام بن نافع الصنعاني (ت:٢١١هـ)، تحقيق أيمن نصر الدين الأزهري، ط١(١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، حديث رقم٢٠٤٩٣، ١١/٢٦٠.

(٧) مدارج السالكين، ابن القيم٢/٣١٣.

ومن تواضعه أنه كان لا يستكبر عن طعام قدم إليه مهما قلت قيمته تآلفاً لقلوب المؤمنين وتكريماً لهم وتربية لهم على فضيلة التواضع وتعظيماً لنعمة الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو دعيت الى كراع أو ذراع لأجبت ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت)[١][٢].

كان صلى الله عليه وسلم لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف، ورقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم[٣].

ومن تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم وسماحة نفسه أنه كان يشارك أهله في البيت مهنتهن وأعمالهن، عن الأسود بن يزيد[٤] قال: (سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة)[٥]، وجاء رجل من البادية فخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: يا خير البرية فقال صلى الله عليه وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام)[٦].

وجاء رجل فقال مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم: يا سيدنا وابن سيدنا، فقال عليه الصلاة والسلام: (يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبدالله وعبدالله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله)[٧].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من أجاب إلى كراع٣/٧/٣٤.

(٢) مدارج السالكين٢/٣١٣.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها١/٧٣١.

(٤) الأسود بن يزيد بن قيس بن عبدالله، يكنى أبا عمرو، وهو ابن أخ علقمة بن قيس، وهو أكبر من علقمة، كان يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وقد حج ثمانين ما بين حج وعمرة، وهو من الزهاد، توفي بالكوفة سنة٧٥هـ، وأسند عن أبي بكر وابن مسعود ومعاذ وأبوموسى وسلمان وعائشة، انظر: صفة الصفوة٣/٢٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله٣/٨/٢٣٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٣-كتاب الفضائل، ٤١-باب من فضائل إبراهيم عليه السلام، حديث رقم٢٣٦٩، ٤/١٨٣٩.

(٧) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم١٣٥٢٩، ٤/٤٨٠.

الكثير من المواقف توضح لنا عظمة خلق المصطفى صلى الله عليه وسلم ومكانته الرفيعة بين أصحابه الذين كانوا على قدر كبير من التشبه به وبأخلاقه تأسياً به صلى الله عليه وسلم، فقد جاء وصفهم في القرآن الكريم بقوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾[1]، (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ) يعني أصحابه (أَشِدَّآءُ) جمع شديد وقوله (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) جمع رحيم والمعنى أنهم يغلظون على الكفار ويتوادون فيما بينهم (تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) يصف كثرة صلاتهم، (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ) وهو الجنة (وَرِضْوَٰنًا) هو رضى الله عنهم وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور[2].

تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه رضوان الله عليهم إذ هم أشداء على الكفار لرسوخهم في شدة الاعتقاد بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) لعدم ميلهم إلى الشهوات هذا باعتبار الأعمال فأنت تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً[3].

قال القشيري: ((أَشِدَّآءُ) فيهم صلابة مع الكفار (رُحَمَآءُ) وصفهم بالرحمة والتواد فيما بينهم تراهم راكعين ساجدين، يطلبون من الله الفضل والرضوان وعلامة التخشع في وجوههم)[4].

وعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر مواقف لصحابة المصطفى صلى الله عليه وسلم وهم يضربون مثلاً رائعاً لمن كان خلقه التواضع، ففي تواضع الصديق أبوبكر رضي الله عنه وأرضاه عندما أراد رضي الله عنه إنفاذ جيش أسامة بن زيد نهض بنفسه إلى الجرف واستعرض جيش أسامة ثم أمرهم بالمسير وسار معهم ماشياً وأسامة راكب فقال أسامة رضي

---

(١) سورة الفتح، الآية (٢٩).

(٢) زاد المسير ١٧٣/٧.

(٣) تفسير القاسمي٥١٠/٨.

(٤) لطائف الإشارات٢١٨/٣.

الله عنه: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال أبوبكر: والله لست بنازل ولست براكب وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله[1].

ووجد أبوبكر أنه بحاجة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليسانده في مهمته الصعبة في مواجهة أهل الجزيرة الذين ارتدوا ولكن كان عمر رضي الله عنه يمشي في جيش أسامة وكان يمكنه أن يستبقيه بقرار منه، ولكنه لم يكن في تواضعه ليفتات على اختصاص قائد الجيش وانتقاص سلطانه وإن كان الخليفة نفسه، اقترب أبوبكر من أسامة وهمس إليه راجياً قائلا: إن رأيت أن تترك ليّ ابن الخطاب فإني أجد في بقائه خيراً ونفعاً وافق أسامة وبقي عمر بموافقة القائد لا بأمر الخليفة[2].

وقد عرف رضي الله عنه وأرضاه بالزهد والتواضع وهنالك مواقف للفاروق عمر رضي الله عنه، فقد خطب يوماً وقد أخذ الناس يزيدون في مهور الحرائر فقال: (لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت مال المسلمين، إذا بامرأة تنهض من بين النساء وتقول له: ليس ذلك لك يا عمر، قال: ولم؟! قالت: لأن الله تعالى يقول ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[3]، فيتهلل وجه عمر ويبتسم قائلاً: أصابت امرأة وأخطأ عمر)[4].

ويخرج عمر يوماً ويده على المعلى بن جارود العبدي[5]، فتقابله امرأة قرشية وتقول له: أيه يا عمر، فيقف لها عمر فتقول: كنا نعرفك عميراً، ثم صرت من بعد عمير عمراً، ثم صرت أمير المؤمنين، فاتق الله يا ابن الخطاب وانظر في أمور الناس فإنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ومن خاف الموت خشي الفوت، فقال المعلى: أيهاً يا أمة الله لقد أبكيت

---

(١) البداية والنهاية، الحافظ بن كثير، ط٢(١٤١١هـ-١٩٩٠م)، مكتبة المعارف، لبنان، بيروت، ٣٠٩/٦.

(٢) مكارم الأخلاق، أحمد رجب الأسمر، ص٤٨٤.

(٣) سورة النساء، الآية (٢٠).

(٤) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي٤٦٦/٤/٢.

(٥) المعلى بن جارود العبدي، ذكره ابن حيان في كتاب الثقات، أحاديثه في سنن الدارمي وابن ماجة، انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي٢٨٤/٢٨.

أمير المؤمنين، فقال عمر: أسكت ويحك أتدري من هذه، هذه خولة بنت حكيم[١] التي سمع الله قولها في سمائه فعمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدي به)[٢].

وعلى الأرجح أنها خولة بنت ثعلبة[٣] ورد في التفسير عن عروة عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوحى سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بن ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فما برحت حتى أنزل جبريل عليه السلام قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[٤][٥].

وكان عمر في عام الرمادة[٦] لا يذوق سوي الخبر والزيت وقيل له في ذلك فقال بئس الوالي أنا إذا شبعت والناس جياع.

وقد مرت الشفاء بنت عبدالله[٧] بفتيان يقصدون في مشيتهم ويخفضون أصواتهم فقالت: ما هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء هم النساك[٨]، قالت: كان عمر بن الخطاب إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع وهو والله الناسك حقاً[٩].

---

(١) خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص بن مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن سليم، السلمية، امرأة عثمان بن مظعون، كنيتها أم شريك، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنها عدد من الصحابة، الإصابة٧/٦٢١.

(٢) العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه، ط٢(١٤١٢هـ - ١٩٩١م)، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ٢/٢٠١.

(٣) خولة بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، ويقال خولة بنت ثعلبة بن مالك بن الرخشم، ويقال خولة بنت الصامت، ويقال بنت خويلد الأنصارية، زوجة أوس بن الصامت، لها صحبة، وهي المجادلة التي ظاهر منها زوجها، انظر: تهذيب الكمال، المزي٣٥/١٦٣.

(٤) سورة المجادلة، الآية (١).

(٥) تفسير القرآن العظيم٤/٣٤٠، أسباب النزول، للواحدي، ص٣٤٧.

(٦) عام الرمادة: كان في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو عام هلكت فيه الأموال والناس، القاموس المحيط، ص٣٦٢.

(٧) الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس بن خلف بن شداد بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشية العدوية، والدة سليمان بن أبي خثمة، وقيل اسمها ليلى، أمها فاطمة بنت وهب بن عمرو بن عائز بن عمران المخزومية، أسلمت قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأوائل، وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم وكانت من فضلاء النساء، وكان عمر بن الخطاب يفضلها وربما أولاها بعض أمر السوق، انظر: الإصابة٧/٧٢٧.

(٨) النساك: النسك العبادة وكل حق لله تعالى وقد نسك كنصر وكرم والنسك أيضاً الدم والنسيكة الذبح، القاموس، ص١٢٣٤.

(٩) مكارم الأخلاق، ص٤٨٧.

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها، وركب زيد بن ثابت[١] مرة فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه فقال: مه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا، فقال: أرني يدك، فأخرجها إليه فقبلها فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

مرّ الحسن[٣] رضي الله عنه على صبيان معهم كسر خبز فاستضافوه فنزل فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وقال: البر لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذر[٤] رضي الله عنه عير بلالاً رضي الله عنه بسواده ثم ندم فألقى بنفسه فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال[٥].

وذكر عن عمر بن عبدالعزيز[٦] أنه أتاه ذات ليلة ضيف فلما صلى العشاء وكان يكتب شيئاً والضيف عنده كاد السراج أن ينطفئ فقال الضيف: يا أمير المؤمنين أقدم إلى

---

(١) زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن وذان بن عمرو بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي، أبوسعيد، وقيل أبوثابت، استصغر يوم بدر ويقال شهد أُحد وشهد الخندق، وكانت معه راية بني النجار يوم تبوك، كتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم وجمع القرآن على عهد أبي بكر، توفي سنة٤٢هـ، الإصابة٢/٥٩٢.

(٢) الإسلام في حياة المسلم، د.محمد البهي، دار الفكر، ص١٠٦.

(٣) الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبومحمد، ولد في نصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عدد من الأحاديث، وروى عنه عدد من الصحابة، توفي سنة٤٩هـ، ويقال إنه مات مسموماً، الإصابة٢/٦٨.

(٤) أبا ذر الغفاري، الزاهد، المشهور، الصادق اللهجة، مختلف في اسمه واسم أبيه، والمشهور أنه جندب بن جنادة بن سكت، ويقال إنه أخ عمرو بن عنبسة لأمه، من السابقين في الإسلام، توفي بالربذة سنة٣١هـ، الإصابة٧/١٢٥.

(٥) مدارج السالكين، ص٣١٢.

(٦) عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، الإمام، الحافظ، العلامة، المجتهد، الزاهد، العابد، أمير المؤمنين حقاً، أبوجعفر القرشي، الأموي، المدني، المصري، الخليفة الزاهد، كان من أمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين، توفي سنة١٠١هت، سير أعلام النبلاء٥/١١٤.

المصباح فأصلحه؟! قال: ليس من مروءة الرجل أن يستعمل ضيفه، قال: أفأنبه الغلام قال: لا هي أول نومة نامها، فقام عمر وأخذ البطة فملأ المصباح، فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين، قال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر وخير الناس عند الله ما كان متواضعاً[١].

كان سلمان الفارسي[٢] أميراً على المدائن[٣] فجاء رجل من أهل الشام من بني تيم الله، معه حمل تين وعلى سلمان عباءة فقال الرجل لسلمان وهو لا يعرفه تعال أحمل . يحسبه حمالاً . فحمل سلمان فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير، فقال الرجل: لم أعرفك، فقال له سلمان: لا حتى أبلغ منزلك قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك[٤].

وقال ابن المبارك في التواضع: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك فضل عليه، وأن تدفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياك عليك فضل[٥].

من يقف على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح يرى أنهم كانوا على درجة عالية من الإيمان منهم من بُشر بالجنة، ومن وهب نفسه لخدمة الإسلام، ومن أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم خيراً، ومن ذكره الله سبحانه وتعالى وصار اسمه قرآناً يتلى . كزيد بن ثابت .، ومن وافقه القرآن الرأي . الفاروق عمر بن الخطاب . ومن استشهد مجاهدا، ولم يكن كل ذلك ليبذر في نفس أحدهم بذرة من كبر أو غرور إنما ذلك كان

---

(١) تنبيه الغافلين، تأليف الإمام أبي الليث نصر بن محمد الحنفي السمرقندي (ت:٣٧٣هـ)، علق عليه وخرج أحاديثه عبدالرحمن الهاشمي، ط١، ٢٠٠٧م، شركة القدس للتصدير، ص١٣٠.

(٢) سلمان الفارسي: سلمان أبوعبدالله الفارسي، ويقال له سلمان بن الإسلام، وسلمان الخير، أصله من رامهرمز، وقيل من أصبهان، خرج في طلب النبي صلى الله عيه وسلم حتى قدم إليه في المدينة، أسر وبيع، فأستغل في الرق وأول مشاهده الخندق وشهد بقية المشاهد، عالم، زاهد، روى عنه عدد من الصحابة، آخى النبي بينه وبين أبي الدرداء، توفي سنة٣٦هـ، الإصابة١٤٦/٣.

(٣) المدائن: كانت قاعدة الفرس فتحها العرب على يد سعد بن أبي وقاص في صفر سنة١٦هـ في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل اسمها بالفارسية توسفون وعربوه على الطيسفون وسمتها العرب مدائن لأنها كانت سبع مدائن وكان دار الإمارة في عصر بني أمية وبعد زوال ملكهم انتقل الناس إلى بغداد، معجم البلدان٧٤/٥.

(٤) السلوك الاجتماعي في الإسلام، فضيلة الشيخ حسن أيوب، ط٣(١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٧١/٢.

(٥) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ص٣١٤.

دافعهم للتواضع الذي كان خلقهم دعاة وحكاماً وأمراء، فما الحظ الذي حصلنا عليه مما حظوا به حتى نجد تلك الفوارق بين الناس في مجتمعاتنا وأي حق للغرور والكبر لنا.

المبحث الثالث
الكبرياء للّه والعزة للدين

وبه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم العزة وأهميتها.

المطلب الثاني: عزة المؤمن بعزة الله سبحانه وتعالى.

المطلب الأول
مفهوم العزة وأهميتها

عزّ: العز خلاف الذل وهو في الأصل القوة والشدة والغلبة، والعزة: الرفعة والامتناع، والعزة لله تعالى وفي التنزيل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أي له العزة والغلبة سبحانه وقوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[2] أي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما له العزة في الدنيا، ولله العزة جميعاً في الدنيا والآخرة وذلك بأن ينصر في الدنيا ويغلب، وأعز الرجل: جعله عزيزاً وملك أعز: عزيز أي منيع لا يغلب ولا يقهر، وقوله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[3] معناه ذق بما كنت تعد من أهل العز والكرم، عزّ الرجل يعز عزاً وعزة إذا قوي بعد ذلة وصار عزيزاً، وأعزه الله وعززت عليه كرمت عليه، العزاز: ما صلب من الأرض واشتد، العزيز: من صفات الله عزّ وجل وأسمائه الحسنى وهو الممتنع فما يغلبه شيء وقيل هو القوي الغالب كل شيء وهو الذي ليس كمثله شيء والمعز هو الذي يهب العز لمن يشاء من عباده[4].

جاء في المفردات: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرض عزاز أي صلبة، قال تعالىَ ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[5]، والعزيز: الذي لا يقهر، قال تعالى ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾[6] وقد يمدح بالعزة تارة ويذم بها تارة كعزة الكفار قال تعالى ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[7]، ووجه ذلك أن العزة التي هي لله

---

(١) سورة المنافقون، الآية (٨).

(٢) سورة فاطر، الآية (١٠).

(٣) سورة الدخان، الآية (٤٩).

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٣٧٤/٥.

(٥) سورة النساء، الآية (١٣٩).

(٦) سورة الصافات، الآية (١٨٠).

(٧) سورة "ص"، الآية (٢).

ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية وهي العزة الحقيقة والتي هي للكافرين هي التعزز وهي في الحقيقة ذل[1].

وقد تستعار العزة للحمية والأنفة المذمومة كقوله تعالى ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[3] يقال عز عليّ كذا أي صعب، قال تعالى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[4] أي صعب وعزه كذا عليه وكتاب عزيز أي يصعب مناله ووجود مثله[5].

العزة للإنسان إذا برئ من الذل والخضوع فلا يقضي على إهانة أو قصدية إذلال، والعزة مكانها النفس، والنفس العزيزة تأبى أن يتعمد الغير إلحاق أي مذلة أو إهانة أو أذى بها، كما تأبى إلحاق الأذى والإذلال بالغير ليبقى الجميع أعزاء كرماء أقوياء النفوس.

أهمية العزة:

لما كانت العزة قواماً نفسياً للفرد الإنساني يؤدي إلى توافق الإنسان مع أخيه الإنسان وفي الوقت نفسه تفاهمهما وتعاونهما مع بعضهما البعض واندماجهما الموضوعي في المجتمع الذي يعيشون فيه يبنون ويسافرون ويساعدون ويعلون ويعملون ويجدون فقد غدت مواطن حماية من السلطات في أي مجتمع سوي[6].

فليس المؤمن ذليلاً ولا مستضعفاً لأن دينه يأبى له الذلة ولا يرضى له الهوان بل يجعل العزة حقاً من حقوق المؤمنين وسمة من سماتهم وعلى المؤمن أن يحتفظ دائماً بعزة نفسه وألا يفرط في كرامته وألا يرضي بالدنية والاستكانة، فإن فعل ذلك فقد انحرف عن طريق الإيمان وطبيعة الإيمان تقتضي الثورة على الذلة والإباء على الهوان والقوة في مواجهة الظلم ومكافحة الطغيان، وقد عاب القرآن على الذين استكانوا لقوى الكفر ورزحوا

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الأصفهاني، ص٤٩٨.

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٠٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٢٦).

(٤) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

(٥) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، ص٢٨٩.

(٦) مكارم الأخلاق في الإسلام، أحمد رجب الأسمر، ص٤٢٨.

تحت سيطرة الطغيان فظلموا أنفسهم وأضاعوا إيمانهم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ (١)، فالعزة هي النتيجة الطبيعية لعقيدة المسلم التي تجعله يوقن أن الكون كله في قبضة الله وإن العباد أخوة يتفاضلون بالإخلاص والتقوى ويتمايزون بالجهاد والتضحية(٢).

جاء في القرآن تقييد الاستكبار الذي يعاقب أهله يوم القيامة بعذاب الهون، يفيد كونه استكباراً بغير الحق، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾(٣) فهم يقال لهم هذا الكلام إذ يعرضون على النار ويجازون عذاب الهون عقاباً لهم على استكبارهم بغير الحق، ونبهنا تقييد الاستكبار بغير الحق على أنه قد يوجد استكبار بالحق ولا يكون أمراً مذموماً . كاعتزاز المؤمن بعزة الله وتقويه بقوة الله على الكافرين وعلى كل من يعتز ويستكبر بقوة مادية . ولما كان الله عزّ وجل أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم، كان تكبره سبحانه بحق فهو محمود منه، لذلك جاء في أسمائه الحسنى أنه المتكبر العزيز الجبار فهو بهذا يثبت لنفسه صفات حقيقية هي له(٤).

ومن صفاته تعالى قوله ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾(٥) فالعزيز: الغالب الذي لا يغلب والذي لا مثيل له والمستحق لأوصاف الجلال وبمعنى المعز لعباده والمنيع الذي لا يقدر عليه أحد(٦).

والكبر لا يليق إلا بالله عزّ وجل وحده قال تعالى ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١) قال مجاهد: يعني السلطان أي هو العظيم الذي كل

---

(١) سورة النساء، الآية (٩٧).

(٢) شخصية المسلم كما صورها القرآن، مصطفى عبدالواحد، ط٣، ١٩٧٠م، مكتبة دار الوثائق، القاهرة، ص١٤٠.

(٣) سورة الأحقاف، الآية (٢٠).

(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ٧٦٧/١.

(٥) سورة الحشر، الآية (٢٣).

(٦) لطائف الإشارات ٣٠٩/٣.

شيء خاضع لديه فقير إليه، وقد ورد في الحديث يقول تعالى (العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منها أسكنته ناري)[٢]، وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع والحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو[٣].

(وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) هذا مشعر بأمرين أحدهما: أن التكبير لابد وأن يكون بعد التحميد والإشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لائقاً بإنعامه بل هو أكبر من حمد الحامدين وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين والثاني: أن هذا الكبرياء له لا لغيره، لأن واجب الوجود لذاته ليس إلا هو، ثم قال **(وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)** يعني أنه لكمال قدرته يقدر على خلق أي شيء أراد ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرفعة والفضل والكرم وقوله **(وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)** يفيد الحصر، فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو وذلك على أنه لا إله للخلق إلا هو ولا محسن ولا متفضل إلا هو[٤].

فهو المتعالي المتكبر وهذه من أجلّ صفاته وفي خطابه للنبي صلى الله عليه وسلم يقول تعالى ﴿**وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾[٥] أي وقل يا محمد الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً فيكون مربوباً لا رباً، لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد **(وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ)** فيكون عاجزاً ذا حاجة إلى معرفة غيره ضعيفاً . ولا يكون إلهاً من يكون محتاج إلى معين على ما حاول . ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان **(وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ)** يقول: ولم يكن له حليف حالفه من الذي كان ذليلاً مهيناً يحتاج إلى ناصر إلهاً يطاع **(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)**

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٣٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٥-كتاب البر والصلة والآداب، ٣٨-باب تحريم الكبر، حديث رقم٢٦٢٠، ٢٠٢٣/٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم١٦٠/٤.

(٤) تفسير الرازي٢٣٦/٢٧/١٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية (١١١).

يقول وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل وأطعه فيما أمرك ونهاك[١].

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ معناه أن التحميد يجب أن يكون مقروناً بالتكبير[٢].

أي كبره تكبيراً يليق بذاته العلية[٣].

والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال[٤].

وعن فضالة بن عبيد[٥] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا تسأل عنهم رجل ينازع الله رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره العزة ورجل في شك من أمر الله والقنوط من رحمة الله)[٦].

وخلاصة القول أن الإسلام ينظر إلى عزة نفس الإنسان نظرة موضوعية واعية، يوضح أسس حماية عزة نفس المؤمن وذلك بتحديد نوعيات الأخلاق التي يجب الالتزام بها لتصان له عزة نفسه وهي أخلاق الإيمان من صدق وأمانة وخير وحق وإحسان وتأمين العدالة والحرية والمساواة بين الناس، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾[٧]، وكذلك يرفض الإسلام كل الأخلاق التي تستهدف إذلال الإنسان والنيل من عزة نفسه، كالافتراء والتضليل والكذب

---

(١) جامع البيان٩/١٥/١٨٨.

(٢) تفسير الرازي١١/٢١/٦٠.

(٣) زهرة التفاسير٨/٤٤٨٠.

(٤) البحر المحيط٦/٨٦.

(٥) فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أهرم الجمحي، القاضي، الفقيه، أبومحمد، الأنصاري، الأوسي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أهل بيعة الرضوان، ولي قضاء دمشق في عصر معاوية وله عدة أحاديث وهو أصغر من شهد بيعة الرضوان، توفي سنة٥٣هـ، وقد عدّ من كبار القراء، انظر: سير أعلام النبلاء٣/١١٣.

(٦) أخرجه الهندي في كنز العمال، كتاب المواعظ والرقائق والخطب والحكم، قسم الأقوال، حديث رقم٤٣٧٩٣، ١٦/١٤.

(٧) سورة النحل، الآية (٩٠).

والبهتان وظلم وتحقير الإنسان وسلبه حقوقه وحرياته وكرامته ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]، وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾[2].

وأباح الإسلام التصدي لكل قول أو فعل يستهدف النيل من عزة الإسلام بما يحول دون الاعتداء على كرامته وعزة نفسه فلا يصغر إنسان أمام متسلط أو متكبر متجبر إذا حاول أن ينال من عزة نفسه والله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[3]، وأيضاً التأكيد على أن العزة حق يقابله واجب فمن أراد أن يحفظ عزة نفسه فعليه هو أن يحافظ على عزة نفوس الآخرين، يحترم ليحترم، ويقدر ليقتدر، ويحفظ كرامة الناس وعزة نفوسهم كي يحفظوا كرامته وعزة نفسه، فالإسلام رفض أن يعتدي إنسان على إنسان مثله، ويدعو كل من اعتدى عليه أن ينتصر لنفسه دون تجاوز وبالأساليب الشرعية التي يعتمدها مجتمعه ورفض الاستذلال بكل معانيه ومقوماته.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٩٤).

(٢) سورة الحجرات، الآية (٦).

(٣) سورة الشورى، الآية (٣٩).

المطلب الثاني
عزة المؤمن بعزة الله سبحانه وتعالى

يكون التكبر تكبراً بالحق كاعتزاز المؤمن بعزة الله وتقويه بقوة الله تعالى، على الكافرين الذين يعتزون ويستكبرون بقواهم المادية وبشياطينهم ودهاتهم، فإنه يكون تكبراً محموداً لأنه لا عدوان فيه على الحق وإنما فيه إذلال للباطل الذي هو ذليل بطبعه، ومن التكبر غير المذموم ما يكون لمعالجة المتكبرين وتصغير نفوسهم المستكبرة بغير حق، وتأديبهم حتى يعرفوا مواقعهم، فهو مظهر من المظاهر التي يكون الغرض منها التربية والتأديب بشرط أن لا يكون في واقع حاله تكبراً قلبياً، ومثله بعض الأعمال التي لا يقصد منها فاعلها التكبر على خلق الله إنما يكون له فيها مقصد آخر(١).

في غزوة أُحد جعل أبودجانة(٢) رضي الله عنه يتبختر بين الصفين وقد عصب رأسه بعصابته الحمراء إعلاماً بأنه سيقاتل قتال الأبطال فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)(٣).

إن فضيلة خلق عزة النفس بالله تعالى وتعاليها عن مواطن الذل من أجل الدنيا من فضائل أخلاق المؤمنين، فالمؤمن يكون متواضعاً لله متذللاً لأخوانه المؤمنين غير مستكبر على خلق الله، ولكنه مع ذلك يكون عزيز النفس بالله، لا يهين نفسه لتحصيل دنيا أو استرضاء أرباب المال أو السلطان لجلب المنافع المادية عن طرقهم فهو أرفع من هذا ولكن اعتزازاً بالله وثقة وتوكلاً عليه، وتذلل المؤمنين بعضهم لبعض هو أيضاً تذلل مودة ورحمة وهو التواضع ابتغاء مرضاة الله، فليس تذلل مهانة ولا ضعة ولا طلب للدنيا إنه تذلل متبادل وسماحة كريمة في الأخوة والتعامل الأدبي والمادي قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ

---

(١) الأخلاق الإسلامية، ص٧٦٨.

(٢) أبودجانة الأنصاري اسمه سماك بن خرشة، وقيل ابن أوس بن خرشة، متفق على شهوده بدراً، استشهد يوم اليمامة، وقيل ممن شارك في قتل مسيلمة، وهو أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحد سيفاً عرضه قال عليه الصلاة والسلام: (من يأخذ هذا السيف بحقه، قال: وما حقه؟ قال: لا تقتل به مسلماً ولا تضر به كافر)، فأخذه أبودجانة، الإصابة٧/١١٩.

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، باب في وقعة أُحد٦/١٠٩.

مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

وصف الله هؤلاء المؤمنين في الآية بست صفات:

الأولى: أنه تعالى يحبهم: فالحب من الصفات التي أسندت إلى الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه.

الثانية: أنهم يحبون الله تعالى وحب المؤمنين الصادقين لله تعالى ثبت في آياته ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾(٢)، وفي حديث أنس(٣) رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)(٤).

وجاء إعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ما أعددت لها؟! قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام إلا إني أحب الله ورسوله، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك)(٥).

---

(١) سورة المائدة، الآية (٥٤).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٥).

(٣) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، أبوحمزة، الأنصاري، الخزرجي، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد المكثرين في الرواية عنه، خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر وهو غلام يخدمه، كانت إقامته بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ثم شهد الفتوح، قطن البصرة وتوفي بها سنة ٩٠هـ، الإصابة١/١٢٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود إلى الكفر ١/١/١٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عزّ وجل٣/٨/٢٧١.

الصفة الثالثة والرابعة: الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين والمروى في تفسيرهما أنهما بمعنى قوله تعالى ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] ووجه قوله (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ) دون (أذلة للمؤمنين) بوجهين: أحدهما: أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قال: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع، والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خاضعون لهم أجنحتهم.

الصفة الخامسة: الجهاد في سبيل الله.

الصفة السادسة: كونهم لا يخافون لومة لائم[2].

في سبب نزول الآية قال قتادة والحسن وغيرهما: نزلت في أبي بكر الصديق وأصحابه، وقال السدي: نزلت في الأنصار، وقيل: إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت، وقيل إنها نزلت في الأشعريين . قوم أبوموسى الأشعري . ففي الخبر أنها لما نزلت قدم بعد ذلك بيسير . الأشعريين . قبائل اليمن عن طريق البحر، فكان لهم بلاء في الإسلام في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت عامة فتوح العراق في عهد عمر بن الخطاب على يدي قبائل اليمن وهذا أصح ما قيل في نزولها والله أعلم وهذا قول القرطبي[3].

يقول الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما روي به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أهل اليمن قوم أبي موسى الأشعري ولولا الخبر الذي روي في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان القول عندي في ذلك إلا قول من قال هم أبوبكر وأصحابه وذلك أنه لم يقاتل قوماً كانوا أظهروا الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتدوا على أعقابهم كفاراً غير أبي بكر ومن كان معه ممن قاتل أهل الردة معه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنا تركنا القول في ذلك للخبر الذي روي فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[4].

---

(١) سورة الفتح، الآية (٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم٦/٣٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن٣/٦/١٤٣.

(٤) جامع البيان٤/٦/٢٨٢.

وقوله (**أَعِزَّة**) جمع عزيز وهو المتصف بالعزة بمعنى القوة والامتناع عن أن يغلب أو يقهر ومنه قوله تعالى ﴿**وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ**﴾[1] أي غلبني في الخطاب، والمعنى أن من صفات هؤلاء القوم الذين يأتي بهم بدل الذين كفروا بعد إيمانهم أنهم أرقاء على المؤمنين عاطفين عليهم متواضعين لهم، تفيض قلوبهم حنواً وشفقة بهم وأنهم في الوقت نفسه أشداء على الكافرين ينظرون إليهم نظرة العزيز الغالب لا نظرة الضعيف الخاضع[2].

وهذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه متعززاً على خصمه وعدوه وقوله عزّ وجل (**يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ**) أي لا يردهم عما فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يردهم عن ذلك راد ولا يصدهم عنه صاد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم)[3].

وعن أبي سعيد[4] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول مخافة الناس، يقول: إياي أحق أن تخاف)[5].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: يتحمل من البلاء ما لا يطيق)[6].

---

(١) سورة "ص"، الآية (٢٣).

(٢) تفسير سورة المائدة، د.محمد سيد طنطاوي، ط١(١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، مطبعة السعادة، ص٢٦٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم١١٧٩٣، ١٦٧/٤.

(٤) أبوسعيد الخدري الإمام المجاهد، مفتي المدينة سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر بن عوف بن الحارث بن الخزرج، وأخوه لأمه قتادة بن النعمان الظفري، استشهد أبوه يوم أحد، وشهد أبوسعيد الخندق وبيعة الرضوان، وحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر وأطال، وعن أبي بكر وعمر وطائفة، وهو أحد الفقهاء المجتهدين، توفي سنة٧٤هـ، انظر: سير أعلام النبلاء١١٣/٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم١١٢٥٥، ٦٢/٤.

(٦) أخرجه ابن ماجة في سننه، ٣٦-كتاب الفتن، ٢١-باب قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم)، حديث رقم٤٠١٦، ١٣٣٢/٢.

(ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ) أي من يتصف بهذه الصفات فإنما هو فضل الله وتوفيقه له (وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ) أي واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه[1].

يعني تعالى بقوله (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) أرقاء عليهم، رحماء بينهم، من قول القائل ذل فلان لفلان، إذا خضع له واستكان، ويعني بقوله (أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) أشداء عليهم غلظاء بهم من قول القائل قد عزني فلان إذا أظهر العزة من نفسه له وأبدى له الجفوة والغلظة[2].

أي أرقاء على المؤمنين في معاملتهم يخفضون جناحهم (أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) أي ينظرون إليهم نظرة العزيز الغالب لا نظرة الذليل الخافع، وعز في أصل معناها غلب[3].

ولما كانت إرادة العلو في الأرض ناتجة عن الاستكبار بغير حق جعل الله مجد الدار الآخرة ونعيمها للذين لا يريدون علواً في الأرض قال تعالى ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[4].

(تِلۡكَ ٱلدَّارُ) يعني الجنة (نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ) فيه خمسة أقوال: الأول: أنه البغي قاله سعيد بن جبير، والثاني: الشرف والعز قاله الحسن، والثالث: الظلم قاله الضحاك، والرابع: الشرك قاله يحيى بن سلام، والخامس: الاستكبار قاله مقاتل[5].

فتلك الدار الآخرة وما فيها من نعيم مقيم دائم لا تعب ولا مشقة معه، يجعلها ربك للذين لا يريدون علواً في الأرض على غيرهم، ولا يريدون فساداً والعاقبة للمتقين حيث علق

---

(١) تفسير القرآن العظيم٢/٧٣.

(٢) جامع البيان٤/٦/٢٨٦.

(٣) زهرة التفاسير٥/٢٢٥٢.

(٤) سورة القصص، الآية (٨٣).

(٥) زاد المسير في علم التفسير٦/١١٦.

الوعد بترك إرادة العلو والفساد وميل القلب إليهما لا يفعلهما مبالغة في تحذير المؤمنين وإبعادهم عن هذه الأمراض الخطيرة التي تبيد الأمم وتهلك الأفراد والجماعات[1].

(تِلْكَ ٱلدَّارُ) إشارة لتعظيم وتفخيم كأنه قيل: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض، أي غلبة وتسلطاً **(وَلَا فَسَادًا)** أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب آل فرعون وقارون والعاقبة الحميدة للمتقين، أي الذين يتقون ما لا يرضاه الله من الأفعال والأقوال[2].

فجعل الجنة للذين لا يريدون تجبراً وتكبراً على عباد الله واستكباراً عن عبادته **(وَلَا فَسَادًا)** أي عملاً بالمعاصي، والعاقبة للمتقين أي العاقبة الجميلة المحمودة من الفوز بالثواب للذين اتقوا الشرك والمعاصي، وقيل معناه الجنة لمن اتقى عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه[3].

من التكبر والاستطالة على الناس واستحقارهم والتهاون بهم، ويقال إرادة العلو هو ترك التواضع **(لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ)** معناه لا يجترعون من ذلها ولا ينافعون من عزها[4].

والإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا ظاهرين في الأرض وعالين فيها ليقيموا العدل، وحتى تعلو كلمة الله سبحانه وتعالى في الأرض وينتشر دينه وليس من باب إرضاء شهواتهم بأن يكونوا عالين في الأرض فهذا ليس مطلب إسلامي وذلك بخلاف غير المؤمنين فإن همهم أن تكون لهما الكبرياء في الأرض وليس لديهم غير هذا الهدف وذلك ما دفع فرعون وحاشيته أن يكون موقفهم من موسى عليه السلام وهارون عليهما السلام أنهما جاءا طالبين بدعوتهما الكبرياء في الأرض، قال تعالى ﴿**قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا**

---

(١) التفسير الواضح٢/٢٠/٨٥١.

(٢) تفسير أبوالسعود٥/١٣٨.

(٣) مجمع البيان٧/٤٢٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لأبي المظفر السمعاني منصور بن محمد عبدالجبار التميمي المروزي (ت:٤٢٦هـ)، تحقيق أبي بلال غنيم بن عباس غنيم، ط١(١٤١٨هـ-١٩٩٧م)، ٤/١٦١.

عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، ففرعون وقومه استكبروا عن إتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين، وقالوا لموسى أجئتنا لتلفتنا عما كان يعبد آبائنا والدين الذي كانوا عليه، وتكون لكما العظمة والرياسة في الأرض فلن نؤمن لكما[2].

يعلل فرعون تكذيبه لموسى وهارون بأنهما أرادا سلب سلطانهم منهم وينفرد هو وأخوه بما يتمتعون به من كبرياء في الأرض يعنون أنه لا غرض لك من دعوتك إلا أن تكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدنيوية، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية وإن لم تعترف به اعترافاً، جعلوا الخطاب الخاص بالدعوة والغرض منها لموسى لأنه هو الداعي لهم بالذات وأشركوا معه أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لأنها تكون مشتركة بينهما بالضرورة **(وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ)** أي وما نحن بمتبعين لكما ما يخرجنا من دين آبائنا ويسلبنا ملكنا الذي تتمتع بكبريائه خاصتنا[3].

(وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ) أي العظمة والملك والسلطان في الأرض يريد أرض مصر، ويقال الملك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا[4].

وهنالك مواقف كثيرة توضح عزة المؤمنين وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم مثل في ذلك عندما أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته بعد نزول قوله﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[5] وكان إعلان الصفا وموقف أبي لهب، ودعوته لقومه ورفضهم دعوتهم لقومه ورفضهم دعوته جاءت وجوه قريش إلى عمه أبي طالب وقالوا: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً وإنا قد استنهيناك أن تنهي ابن أخيك ولم تفعل وإنا والله لا نصبر على شتم آلهتنا وآبائنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين، عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم تطب نفسه بالتخلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة يونس، الآية (٧٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم٢/١١/٤٤٠.

(٣) تفسير القرآن الحكيم١١/٣٩٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن٤/٢٣٤.

(٥) سورة الشعراء، الآية (٢١٤).

لهم وخذلانه، فأرسل إليه وأعلمه بما قالت قريش وقال: أبق على نفسك وعليّ ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فقال قولته عليه الصلاة والسلام التي لا زالت ترددها الملايين عبر العصور والدهور: (والله يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، فقال أبوطالب: أذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت والله لا أسلمك لشيء أبداً)[١].

قال عمرو بن العاص: حضرت قريش يوماً بالحجر فذكروا النبي صلى الله عليه وسلم وما نال منهم وصبرهم عليه، فبينما هم كذلك إذ طلع النبي صلى الله عليه وسلم ومشى حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً، فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك في وجهه، ثم مرّ ثانية فهمزوه وفي المرة الثالثة قال لهم: أتسمعون يا معشر قريش؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح فكأنما على رؤوسكم الطير، فأخذت القوم كلمته حتى إن أشدهم عليه يقول انصرف يا أبا القاسم راشداً فو الله ما كنت جهولاً[٢].

وعندما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث ابنة عمه أم هاني[٣] بحديث الإسراء وهمّ بالخروج من عندها ليحدث قريشاً بحديث الإسراء أخذت بأطراف رداءه وقالت: يا نبي الله لا تحدث بهذا الحديث فيكذبونك ويؤذونك، قال: والله لأحدثنهم، فخرج وحدث بحديث الإسراء فكذبوه بالرغم من صحة قوله وتدليله عليه بالبعير الذي فر ودلّ أهله عليه في ذهابه وبالرفقة العائدين إلى مكة في عودته والذين سألوهم فأكدوا ما قاله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك أصروا على التكذيب[٤].

---

(١) تاريخ الأمم وملوك الطبري ١/٥٨٧.

(٢) مكارم الأخلاق في الإسلام ١/٥٨٧.

(٣) أم هاني السيدة الفاضلة بنت عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب بن عبدالمطلب بن عبد مناف بن هاشم الهاشمية، المالكية، أخت علي وجعفر، اسمها فاختة وقيل هند، تأخر إسلامها، روت أحاديث، وحدث عنها حفيدها جعدة ومولاها أبوصالح، وعدد من الصحابة، أسلمت يوم الفتح، سير أعلام النبلاء ٢/٣١١.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير ٣/٤٣.

وكان صحابته رضوان الله عليهم قد أخذوه قدوة وتأسوا به صلى الله عليه وسلم في كريم خلاله وتربوا في أكبر مؤسسة تربوية مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان قوامها الأخلاق الفاضلة.

فهذا الصديق رضي الله عنه وأرضاه في موقف عزة حيث ضاقت مكة على أبي بكر لاضطهاد المشركين فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة[١] فأذن له وخرج مهاجراً وفي الطريق قابله الحارث بن يزيد[٢] أحد بني بكر[٣] من كنانة[٤] وطلب منه أن يرجع ويكون في جواره، وجدها أبوبكر فرصة حتى يكون بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن يستسيغ فراقه وكان أبي بكر يصلي ويقرأ القرآن فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، فذهب رجال من قريش إلى الحارث وشكوا من أذية أبوبكر لهم وخوفهم على صبيانهم ونسائهم، ذهب الحارث إلى أبي بكر قائلاً: يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك وقد كرهوا مكانك وتأذوا منك فأدخل بيتك فأصنع فيه ما أحببت، قال أبوبكر: أو أرد عليك جوارك؟ قال الحارث: أردد عليّ جواري، ونادى في قريش يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قدر ردّ عليّ جواري فشأنكم بصاحبكم، وتتابع أذى قريش لأبي بكر حتى جعل يقول: أي رب حلمك[٥].

---

(١) الحبشة: أو أثيوبيا دولة وسط أفريقيا عاصتها أديس أبابا يحدها البحر الأحمر، الصومال، وجيبوتي وكينيا السودان وهي عبارة عن صحاري منخفضة وهضبة جبلية، والهضبة وعرة يشق الانتقال فيها ويغزر سقوط الأمطار صيفاً وتذهب أكثر الأمطار إلى بحيرة في الشمال الشرقي وهي منبع النيل الأزرق ويعتمد اقتصادها على الزراعة وتشمل الصادرات الحبوب، البن، العسل، والجلود، والذهب، والآمهرية اللغة الرسمية، وكانت إليها هجرة العرب الأوائل، انظر الموسوعة العربية١/٧٤.

(٢) الحارث بن يزيد النعمان بن نفع بن زيد بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار الخزرجي، البخاري، يقال ابن رافع بدل ابن نفع، له من الولد عبدالله وعبدالرحمن وسودة وعمر وأم كلثوم، يكنى أبا عبدالله، شهد بدر وما بعدها من المشاهد، كان ديناً، خيراً، باراً بأمه، سير أعلام النبلاء٢/٣٧٨.

(٣) بنو بكر: بطن من كنانة بن خزيمة من العدنانية وهم بنو بكر بن عبد مناة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، معجم قبائل العرب١/٩٢.

(٤) كنانة: كنانة ابن خزيمة قبيلة عظيمة من العدنانية وهم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نذار بن معد بن عدنان كانت ديارهم جهات مكة وتنقسم إلى عدة بطون منها قريش، عبد مناة بن كنانة، بنو مالك بن كنانة، بنو الليث بن بكر بن عبد مناة، معجم قبائل العرب٣/٩٩٦.

(٥) مكارم الأخلاق في الإسلام، ص٤٣٩.

وهذا الفاروق رضي الله عنه لم يستسيغ أن يترك المسلمون المسجد الحرام لكفار قريش فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ألسنا على حق؟! قال: بلى يا عمر، قال: ففيم الاختفاء إذن؟! والذي بعثك بالحق لتخرجن ولنخرجن معك ويخرج الرسول والمسلمون في صفين عمر على رأس صف وحمزة[1] على رأس صف والرسول صلى الله عليه وسلم بينهما ولم يستطع المشركون أن يتعرضوا لهم[2].

وكثير هي تلك المواقف لهؤلاء الصحبة النيرة التي توضح اعتزاز المؤمنين وهي عزة من الله تعالى وهي قاعدة توضح أن للمؤمنين حقاً العزة، لأنهم أولئك الذين اقتدوا في سلوكهم وفي طاعتهم لرسالة الله تعالى برسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يبعدهم هوى عن الطريق المستقيم ولم تتحكم فيهم النفس الأمارة بالسوء وأصبحوا بهذا أعزاء، وأصحاب منعة وقوة، استمدوا عزتهم من إيمانهم بالله وبرسالته وانتزعوا قوتهم ومنعتهم من التغلب على هواهم وشهواتهم، فتغلب النفس على هواها عزة، وترفعها عن دنياها قوة، وسيطرتها على حاجاتها غني وثروة، إذاً المؤمن العزيز هو المؤمن القوي وهو صاحب كرامة لأنه لا يستذل ولأنه مترفع عن الدنايا لا يسأل غيره قضاء حاجة لنفسه من حوائج الدنيا.

---

(١) حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أبوعمارة بن النبي صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة، أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب، أمه هالة بنت أهيب بن عبد مناف، ولد قبل النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وقيل بأربع، وأسلم في السنة الثانية من البعثة، استشهد بأحد، قتله الوحشي، الإصابة٢/١٢١.

(٢) خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٣م، بيروت، ص٨٥.